الفصل الحادى عشر
رجـل الدمــار

7. تُرجمت جملة بيبسى «تعال وانتعش مع جيل بيبسى» إلى اللغة الصينية بالعبارة «بيبسى تبعث أسلافك أحياء من قبورهم».

8. تُرجم شعار دجاج فرانك بيردو «إن طهى دجاجة طرية يحتاج إلى رجل قوى» إلى الإسبانية بالعبارة «إن إثارة عاطفة الدجاجة يحتاج إلى رجل فحل».

9. كان اسم الكوكاكولا يقرأ فى الصين فى البداية «كى-كوو-كى-لا ke-kou-ke-la» التى تعنى بالصينية اقضم الشرغوف (الضفدعة) المصنوعة من الشمع» أو «أنثى الحصان المحشوة بالشمع» بحسب اللهجة. فأجرت شركة كوكا بحثاً على 40 ألف حرف صينى للعثور على المثيل الصوتى للمقاطع «كو-كوو-كو- لا Ko- Kou- Ko-Le» التى تترجم بمعنى «مذاق السعادة».

10. حينما كان ممثلو شركة باركر بن للأقلام يسوّقون القلم ذا الرأس الدوارة فى المكسيك، كان من المفترض أن تقرأ إعلاناته على النحو التالى، «إنه لن يجعل الحبر يتسرب فى جيبك ويشعرك بالإحراج». ولكن خطأ فى الترجمة جعلها تقرأ فى الإعلانات على أنها، «إنها لن تجعل الحبر يتسرب فى جيبك ويجعلك حامل (حبلى)».

ـ جزء من قائمة من أكبر عشرة أخطاء فى التسويق العالمى،

نشرته صحيفة ساراسوتا هيرالد تريبيون

فى 19 يناير 1998.

فى عام 1993، اشترك سيلڤيستر ستالونى وويزلى سنايبس فى بطولة فيلم غير مشهور، ويصعب تذكره، ولكنه مثير اسمه ***رجل الدمار*** *Demolition Man*. تقع أحداث الفيلم فى عام 2032، عندما تسيطر العولمة تماماً على الحياة فى أمريكا ويُحظر قانوناً، القسم، أو التدخين، أو استخدام الملح، أو أن تكون فقيراً، أو تبادل السوائل، أو استخدام الخشونة والفظاظة، أو تعاطى الكحوليات، أو إنجاب أطفال بدون ترخيص. يخرج المجرم العتيد سيمون فينيكس (سنايبس) من سجن التجميد العميق الذى ظل به لمدة ثلاثين عاماً، وفيه يتجمد النزلاء على الفور باستخدام تكنولوجيا التبريد. وعندما يخرج من هذا السجن يجد أن كاليفورنيا الجنوبية هادئة ومسالمة وخالية من الجريمة وقد أصبحت ثمرة ناضجة ليقطفها أحد رجال العصابات الأشداء مثله. وبسرعة اكتشف المسئولون المحليون، الذين لم يعتادوا على وجود الجريمة، أنهم بحاجة إلى رجل شرطة من طراز قديم للتصدى للمجرم من الطراز القديم. ومن ثم يذيبون تجميد جون سبارتان (ستالونى)، الذى كان بدوره يقضى عقوبة كمكعب للثلج فى سجن التجميد نفسه بسبب مواجهة دموية سابقة مع فينيكس، قتل فيها الكثيرون من المدنيين الأبرياء. ولكن قصة هذا الفيلم لا تعنينا. أما أكثر ما يلتصق بالذاكرة عن هذا الفيلم فهو أنه لا يوجد فى ولاية كاليفورنيا الجنوبية المستقبلية والعولمية سوى مطعم واحد فقط، هو تاكو بيل.

يكتشف ستالونى هذه الحقيقة، بعد أن يزول عنه التجميد، عندما يدعوه مسئول محلى على مأدبة عشاء تكريماً له لأن ستالونى أنقذ حياته. ويصاب ستالونى بصدمة عندما يكتشف أن حفل العشاء سوف يقام فى مطعم تاكو بيل. ويتبادل الحوار التالى مع شرطية زميلة له، وهو الدور الذى تلعبه ساندرا بولوك، وهما فى طريقهما لحضور حفل العشاء:

ستالونى: إنه يقول إننى أنقذت حياته، وأنا لست واثقاً حتى من أننى فعلت ذلك، وأن مكافأتى هى العشاء والرقص فى مطعم تاكو بيل؟ أعنى، صحيح أننى أحب الطعام المكسيكى، ولكن ليس تاكوبيل».

بولوك: لهجتك تنم عن السخرية، ولكنك لا تدرك أن تاكو بيل هو المطعم الوحيد الذى نجا من حروب الامتيازات».

ستالونى: وماذا بعد؟

بولوك: ولهذا، ترى أن كل المطاعم الموجودة الآن هى تاكو بيل.

ستالونى: «مستحيل».

بعد ذلك، يسير الاثنان إلى داخل هذا المطعم الخيالى، تاكو بيل، حيث يغنى عازف البيانو الذى يشبه بارى مانيلو أغنية الإعلانات للخضروات المحفوظة جرين چيانت:

أشياء طيبة من الحديقة
الحديقة فى الوادى
وادى جرين چيانت الجميل.

ذلك أنه بحلول عام 2032 لن يبق من الأغانى سوى أغانى الإعلانات. وبعد أن تجلس المجموعة إلى مائدة العشاء، يطلب ستالونى من أحدهم أن يمرر له الملاحة.

بولوك: «الملح مضرّ بك، ومن ثم فهو غير قانونى».

ترى هوليود، أن ذلك هو ما ستبدو عليه أمريكا عندما تحكم العولمة الأرض، حين تتجانس كل الثقافات والبيئات، وتصبح نمطية وصحية. إنه تصوير خيالى علمى للمستقبل يبعث القشعريرة فى النفس، ولكن أكثر ما يقلقنى هو أنه ربما يكون فيه أكثر من مجرد بذرة من الحقيقة، بل وملح أيضاً.

عندما سافرت إلى الدوحة عاصمة قطر فى خريف عام 1997، أقمت فى فندق شيراتون الذى يقع عند طرف كورنيش الدوحة تماماً، ويطل على الخليج العربى بمياهه الخضراء الضاربة إلى الزرقة. وكورنيش الدوحة هذا طريق للمشى على ساحل البحر يبلغ طوله عشرة أميال، ممهد بالحجارة البيضاء وتتخلله الحدائق وأشجار النخيل. وتتنزه النساء القطريات بزيهن القطرى، وبعضهن يرتدين أقنعة سوداء لا تظهر منها سوى أعينهن رائحات غاديات على هذا الكورنيش. والرجال القطريون يرافقونهن ويحرسونهن، فى حين تدفع الأمهات بعربات أطفالهن، وتسير العائلة على مهل بالقرب منهن، وجميعهم يستمتعون بالنسمات الباردة الآتية من الخليج. فى أول صباح لى فى الدوحة، خرجت من الفندق للتمشية على الكورنيش، وقلت فى نفسى والألوان تتسرب إلى عقلى ومشاعرى، وباقة ألوان الناس واللوحة بأسرها: «لقد صمم هذا المكان حقيقة بذوق رفيع. ولو كان هناك ثقافة ومنظر يعبران بأصالة عن الخليج العربى، لكان هذا المكان». وكلما مشيت زاد استمتاعى ـ إلى أن وجدته فجأة أمامى وأنا أدور حول أحد الأركان، مثل بقعة هائلة فى الأفق:

تاكو بيل.

نعم هناك تماماً، فى وسط الكورنيش القطرى، تاكو بيل ـ وصورة ارتفاعها عشرون قدماً لأمير قطر منتصبة فوق سطحه. نظرت إلى ذلك المنظر وقلت فى نفسى: «أوه، كلا، يا إلهى، ماذا يفعل هذا هنا؟ لماذا وضعوا تاكو بيل تماماً فى منتصف هذا الكورنيش الجميل؟ لقد كنت أشعر هنا بلحظة قطرية أصيلة، هنا كنت أشعر بأننى بعيد عن بلادى فى بقعة فريدة من بقاع العالم ، ومع ذلك كان علىّ أن أرى تاكو بيل». وأسوأ ما فى الأمر أنه كان مزدحماً!

قال الكاتب توماس وولف، «إنك لن تستطيع العودة مرة أخرى إلى الوطن». ولكننى أخشى أنه كان مخطئاً. ففى عالم العولمة لن تستطيع أن تغادر وطنك مرة

أخرى. فبما أن العولمة تنشئ سوقاً واحدة ـ باقتصاديات حجم هائلة تجعل إنجاز العمل نفسه أو بيع المنتج نفسه فى أنحاء العالم وفى وقت واحد مجزياً ـ فهى تستطيع أن تجعل الاستهلاك متجانساً فى آن واحد فى أنحاء العالم. ولما كانت العولمة قوة تعمد إلى التجانس الثقافى والتهام البيئة قادمة بسرعة كبيرة، فهناك خطر حقيقى من أنها فى غضون عقود قليلة فقط قد تقضى تماماً على التنوع الإيكولوجى والثقافى الذى أفرزه التطور البشرى والبيولوجى طوال ملايين السنين.

ولا يوجد هناك حقيقة سوى أمل واحد فى وقف ذلك أو على الأقل إبطاء حدوثه. فتماماً كما تحتاج الدول إلى تطوير الأدوات الصحيحة للوقاية من الاندفاعات العارمة والبرمجيات الصحيحة إذا كانت ترغب فى الالتحام بالقطيع الإلكترونى مالياً بدون أن يسحقها القطيع، فإن ذلك يصدق على المجالات البيئية والثقافية. تحتاج الدول إلى تطوير مرشحات ثقافية وبيئية قوية وكافية حتى يتسنى لها التفاعل مع القطيع بدون أن يسحقها ويحول ثقافتها إلى عصيدة عالمية وبنيتها إلى هريسة عالمية. وإذا لم تفعل الدول ذلك، ولا سيما الدول النامية، فسوف نصبح جميعاً أكثر فقراً. كل الأماكن ستبدو مثل كل الأماكن، بمطاعم تاكو بيل، وكنتكى فرايد تشيكين، وفنادق الماريوت نفسها، والأسواق وقناة إم تى فى وشخصيات ديزنى نفسها، وبالأفلام والموسيقى نفسها، وبالغابات العارية من الأشجار ووديان الخرسانة المسلحة نفسها. وسوف تصبح السياحة حول العالم مثل الذهاب إلى حديقة الحيوان ومشاهدة الحيوان نفسه فى كل قفص ـ حيوان محنط.

عندما زرت بانكوك فى مارس 1996 كان الناس هناك ما زالوا يتحدثون عنها. كانوا يطلقون عليها «أم جميع اختناقات المرور».

كانت المناسبة هى الإجازة الرسمية لمدة أربعة أيام احتفالاً ببدء موسم الأمطار فى تايلاند فى شهر أبريل السابق. وقد أعاد ريتشارد فرانكل، الذى يعمل مهندساً للبيئة فى بانكوك على أسماعى، رواية ما حدث: «فى مساء الأربعاء تصورنا أننا نستطيع محاولة اجتناب زحام المرور والذهاب إلى خارج المدينة. كنا نعتزم الذهاب بالسيارة إلى تشيانج ماى، التى تبعد مائتى ميل إلى الشمال، وأن نقضى الإجازة هناك. وهكذا حمّلنا السيارة وأطعمنا الجميع وانطلقنا من المنزل. كنا ننوى استخدام الطريق السريع الدائرى حول بانكوك، ومواصلة السير إلى ما بعد المطار وبعد ذلك الاتجاه شمالاً. غادرنا المنزل فى الساعة العاشرة مساءً. وكان الأطفال نياماً فى المقعد الخلفى. سار كل شىء على أكمل وجه ـ إلى أن وصلنا إلى الطريق السريع. كان المرور متوقفاً، السيارة خلف السيارة على مسافة ستين ميلاً. وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى كنا قد تمكنا فقط من الوصول إلى المطار على بعد بضعة أميال من منزلنا، وقد ترك بعض الناس سياراتهم. وفى النهاية نجحنا فى الدوران إلى الخلف وأمضينا الإجازة فى المنزل».

تعتبر بانكوك مثالاً مفرطاً فى المبالغة لما يمكن أن يحدث عندما تفتح دولة نامية أبوابها أمام اندفاع الاستثمار العالمى بدون إقامة المرشحات والأدوات الصحيحة للوقاية من الاندفاعات العارمة لكى تضبط النمو. انظر إلى المشكلة من هذه الزاوية: فى نهاية التسعينيات كان هذا الكوكب يحمل 5.8 مليار نسمة. لنقل أن 1.5 مليار نسمة منهم يعيشون اليوم فيما يمكن أن نسميه أسلوب الحياة العولمية. بمعنى أنهم كانوا يعيشون فى الطبقات الوسطى المنخفضة أو الوسطى أو العليا من مجتمعاتهم، لديهم التليفزيون، وربما التليفون، ونوع ما من المركبات للانتقال بها، ومنزل به ثلاجة كهربائية، وغسالة ملابس بالمجفف. وبعبارة أخرى، إنهم كانوا يعيشون أسلوب حياة قائم على الاستهلاك المكثف للبتروكيماويات (بدءاً من البلاستيك وانتهاء بالأسمدة) والهيدروكربونات (فحم وغاز وبترول) والمعادن المرنة (المحنية) (سيارات، وثلاجات كهربائية، وطائرات).

وفى العقد التالى، إذا استمرت العولمة فى جذب المزيد والمزيد من الناس إلى هذا الأسلوب من الحياة، وإذا لم نتعلم كيف نصنع أشياء أكثر باستخدام مواد أقل، فسوف ينتهى بنا الحال إلى القضاء على ما لدينا من المناطق المحتفظة بنقائها الأصلى، من الغابات والأنهار والأراضى الرطبة، إحراقاً وإزالة وتمهيداً واستهلاكاً، واستغلالاً للامتيازات بمعدل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية.

اذهب إلى بانكوك وانظر إلى المستقبل: ثراء المدينة وفقر الحياة. إن بعض السائقين فى بانكوك لا يغادرون منازلهم بدون تليفون متنقل وسلة صغيرة محمولة للطعام فى سياراتهم بسبب زحمة المرور. وبانكوك مدينة يعيش فيها 10 ملايين نسمة مع تخطيط مركزى ضعيف بحيث لا يوجد بها حتى أواخر التسعينيات مترو للأنفاق أو حتى تخطيط لحارات سير السيارات. وتوقف الكثيرون من سكان بانكوك عن استقبال الضيوف فى أمسيات الإجازات بسبب صعوبة وصول الضيوف فى مواعيد مناسبة. اشتكى من ذلك لى ذات ليلة جيمس فاهن الصحفى فى مجال البيئة قائلاً: «لقد ولت كل مظاهر العفوية من الحياة. إنك حتى لا تستطيع الاتصال بصديقك وتقول له: 'نتقابل فى مطعم بعد خمس عشرة دقيقة'.

لقد كان الجدل التقليدى الذى تسمعه فى الدول النامية على شاكلة هذا القول: «إننا قد نشيع الفوضى الآن ولكننا سوف نقوم بعملية الترتيب فيما بعد عندما يتسير لنا ذلك». ولكن بانكوك تثبت لنا أنه عندما تتوسع مدينة ما بهذه السرعة وبلا ضوابط على هذا النحو فربما لن يكون هنا فيما بعد. لقد انتهى بالفعل وجود الأرصفة فى الشوارع. ولم يعد هناك أماكن لإقامة متنزهات جديدة. والقنوات ردمت بالأسمنت لكى تحل محلها المبانى الجديدة. والأسماك فى النهر ماتت. ويعانى نصف رجال شرطة المرور من مشكلات فى التنفس. وفى بانكوك، تجاوزت السوق الحرة والقطيع الإلكترونى الحكومة ببساطة، أو أصبحت تفوق الحكومة ثراءً بحيث يستطيع

المستثمرون التهرب من كل قوانين البيئة عن طريق الفساد. قالها لى ذات مرة أحد الدبلوماسيين الأمريكيين فى تايلاند عندما زرتها فى عام 1996، «لقد افتتحنا نحو اثنتى عشرة سفارة لنا فى دول الاتحاد السوفيتى السابق، ووظيفتنا هناك أن نشرح للناس أن هناك شيئاً اسمه 'السوق'. أما مهمتنا فى تايلاند فهى أن نشرح للناس أن هناك أشياء أخرى غير السوق».

كنت ذات مرة أجرى مقابلة مع آجوس پورنومو رئيس الصندوق العالمى للطبيعة فى إندونيسيا، وسألته: «كيف يكون المرء مدافعاً عن البيئة فى بلد من بلدان الأسواق الناهضة؟ هل يجعل ذلك من المرء أكثر الأشخاص شعوراً بالوحدة فى المدينة؟»

تنهد قائلاً: «إننا فى سباق متصل مع التنمية. فحتى قبل أن تسنح لنا الفرصة لإقناع أكبر عدد من الناس هنا بأن التنمية القائمة على أساس بيئى سليم هى الأسلوب الصحيح لتنفيذ الأشياء، نجد أن خطط تمهيد الطرق أو إقامة المصانع أو محطات القوى تسبقنا. ولدينا هنا مشكلة بطالة، ومن ثم سوف يلقى الدعم كل من يطور شيئاً يستطيع به بيع الوعود بأنه يخلق فرص العمل. وعندما يحدث ذلك فإننا نكون موضع الاتهام بأننا ضد محاربة البطالة ويعاملوننا مثل الدخلاء».

غير أن الدمار الذى ينشأ عن ذلك يحدث الآن بسرعة كبيرة وغالباً ما يستعصى على الإصلاح، حسبما قال. «فأنت إذ تفقد جبلاً، تفقده إلى الأبد. فلا تستطيع أن تعيده مرة أخرى. وإذا أزلت أشجار الغابات، فقد تستطيع زراعتها مرة أخرى ولكنك تفقد التنوع البيولوجى ـ النباتات والحيوانات. وما يثير قلقى أننا فى غضون عشر سنوات سوف يكون لدينا جميعاً الوعى البيئى، غير أنه لن يكون هناك ما ندافع عنه».

ما العمل؟ هل يمكننا التوصل إلى أسلوب فى العولمة يحافظ على البيئة باستمرار؟ إن الأمل الوحيد بلا شك هو أن نطور التكنولوچيا بطرق تساعدنا على الحفاظ على

المساحات الخضراء بسرعة تفوق قدرة القطيع الإلكترونى على سحقها. أو كما يحب روبرت شابيرو رئيس شركة مونسانتو أن يردد القول: «إن ضرب عدد البشر فى آمال البشر لوجود طبقة وسطى ثم قسمتها على مجموع أدوات التكنولوجيا الراهنة يضع ضغوطاً غير متصلة على النظم البيولوجية التى تدعم الحياة على كوكبنا. فعندما كان يعيش ثلاثة رجال على ضفاف بحيرة ويلقون مخلفاتهم فيها، فهذه لم تكن مشكلة. أما إذا كان 30 ألف رجل يفعلون ذلك، فمن الأفضل لك أن تجد طريقة تخفض بها حجم مخلفاتهم، أو تتعامل مع هذه المخلفات، أو تقلل من عدد الناس الذين تنتج عنهم هذه المخلفات ـ وإلا فسوف تختفى البحيرة من الوجود».

وسوف يتطلب ذلك التوصل إلى اكتشافات حقيقية فى تكنولوجيا المعلومات، والتكنولوجيا الحيوية، وتكنولوجيا النمنمة (تصغير الأشياء إلى مستويات الجزئ والذرة التى تمكن المصادر الدقيقة للطاقة من إدارة نظم ضخمة) حتى يتسنى لنا إيجاد القيمة على نطاق أصغر فأصغر، فى حين نستخدم المواد بصورة أقل فأقل. فعلى سبيل المثال، من العلامات المشجعة أنه بفضل التكنولوجيا الحيوية، نستطيع الآن أن ندخل فى النباتات ونغير الأزواج الرئيسية من حمضها النووى (الدنا DNA)، بحيث تكون بطبيعتها طاردة للحشرات بدون الحاجة إلى استخدام الأسمدة أو المبيدات. كذلك من العلامات المشجعة أنه بفضل تكنولوجيا المعلومات تحولت الآن أشياء مثل أشرطة التسجيل والأفلام إلى أرقام ـ أرقام من 1 و 0 ـ لا تتعرض للخطر ولا تنتج عنها مخلفات، ويمكن إعادة استخدامها إلى ما لا نهاية.

غير أن الاكتشافات التكنولوجية وحدها لن تكف للقضاء على الآثار البيئية للقطيع، لأن الابتكارات ببساطة لا تحدث بسرعة كافية ـ مقارنة بالسرعة التى يتحرك بها القطيع وينمو، ويبيد الأشياء. إنك تستطيع أن ترى ذلك فى إحصائيات تدمير البيئة الآن. فقد نشرت مجلة *تايم* فى عام 1998 أن 50 فى المائة من أنواع الرئيسيات المعروفة

فى العالم وعددها 233 نوعاً مهددة الآن بالانقراض وأن العالم يفقد 52 آيكراً من غاباته فى ***كل دقيقة***.

ولهذا السبب، يجب أيضاً أن يتعلم أنصار البيئة التحرك بسرعة أكبر. إنهم بحاجة إلى تطوير البرمجيات التنظيمية وإجراءات تنفيذ الحفاظ على البيئة بسرعة لضمان التنمية المستدامة والمحافظة على أكثر المناطق الطبيعية نقاءاً أصلياً. وهم بحاجة إلى تكثيف جهودهم مع المزارعين المحليين والشعوب البدائية التى يعتمد بقاؤها على سلامة الغابات وغيرها من النظم الطبيعية. إنهم بحاجة إلى رعاية الصفوة المحلية على وجه السرعة لكى يكونوا مستعدين لبناء المتنزهات والمحميات الطبيعية والحفاظ عليها بحيث لا تجد البورجوازية الجديدة والطبقات السفلى فى الحضر الوقت أو الموارد أو النية لتكون مصدر إزعاج لها. وهم بطبيعة الحال بحاجة إلى تعزيز سياسات فعالة لتنظيم النسل على الفور، لأن النمو السكانى الذى لا يجد ما يكبح جماحه سوف يؤدى إلى انفجار أى مرشحات للحماية البيئية. كتب هوارد يوث، فى مجلة ***وورلد ووتش***، عن نجاح الشعب الكاريبى فى هندوراس فى تطوير نوع من الوعى الأخضر على مر السنين، وذكر أن هذا الجهد الشاق كاد أن يتعرض للخطر بسبب نقص فى وسائل منع الحمل. كتب يقول، «إنك تستطيع أن ترى وأنت تحلق بالطائرة فوق ريف هندوراس دولة آخذة فى النمو : نيران تحرق الأشجار القصيرة والأجمات، ومدن جديدة، وطرقات جديدة، وقطع جديدة من أراضى الغابات التى أزيلت أشجارها من المنحدرات تشكل خليطاً من النشاط الإنسانى.... إن أكبر نمو سكانى يحدث فى الريف ـ فى القرى المنتشرة على اتساع الأراضى القاحلة ـ وفى الكثير من هذه الأماكن لا تتوافر وسائل منع الحمل... ».

ولكن فى حين أنه من دواعى السرور أن يكون أنصار البيئة قادرين على التحرك بسرعة أكبر فى كل المجالات، فإن الاعتقاد بأنهم سيفعلون أمر غير واقعى. إذن أين

يتركنا ذلك؟ إنه يتركنا مع هذه الحقيقة: إن الطريقة الوحيدة حتى الآن للجرى بسرعة القطيع هو ركوب القطيع ذاته ومحاولة إعادة توجيهه. إننا بحاجة إلى أن نثبت للقطيع أنه يمكن للخضرة والعولمة والنهم أن تسير جنباً إلى جنب. إذا أردت إنقاذ الأمازون، فعليك أن تذهب إلى كلية الأعمال وأن تتعلم كيف تبرم صفقة ما.

ليس من السهل العثور على أناس يجمعون بين حاسة البريد الأخضر والسلام الأخضر، ولكن كيث آلجر هو أقرب من قابلتهم لتلك النوعية من الناس.

قابلت آلجر، الذى يبلغ من العمر أربعة وأربعين عاماً، فى أثناء جولتى فى الغابة المطيرة المطلة على الأطلنطى فى البرازيل، حيث كان أحد قادة الائتلاف الذى ساعد فى إنقاذ ما تبقى من الغابة المطيرة فى الشمال الشرقى من ولاية باهيا بالبرازيل، ويعمل أيضاً على إيجاد وظائف بديلة هناك لبعض من يعملون فى قطع الأخشاب. جاء آلجر، ذلك العالم السياسى المتزوج من خبيرة برازيلية فى القرود، إلى البرازيل برؤية أن بإمكانه إنقاذ الغابة المطيرة بالمساعدة فى تثقيف البرازيليين حول أهميتها الإيكولوجية. ولكن سرعان ما أدرك أنه طالما لم يستطع توفير وظائف للعاملين فى قطع الأخشاب الذين سيتوقف نشاطهم عند إنقاذ الغابة المطيرة، فلن يصل إلى شىء. وقد وصف لى آلجر الوضع قائلاً: «من الصعب على الناس أن يكونوا فقراء، ومما يثير الكثير من الحرج أن لا تستطيع رعاية من يحيطون بك. فقد يقول المزارعون هنا إنهم يرغبون بالفعل فى إنقاذ الغابة المطيرة، ولكن وظائفهم أيضاً تتعرض للخطر. فإذا احتاجوا إلى شراء سيارة جديدة أو إرسال ابن إلى الكلية فما عليهم إلا أن يستأجروا آلة قطع الأخشاب لإزالة بضعة هكتارات من أشجارهم القديمة، التى كانوا يدخرونها مثلما يدخرون النقود فى البنك. فإذا كنت أريد إنقاذ الغابة المطيرة فيجب أن أساعدهم فى الحصول على وظائف».

وهكذا تعاون آلجر الذى يدير معهد الدراسات الاجتماعية والبيئية فى ولاية باهايا الجنوبية مع منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال (أى المنظمة الدولية للحفاظ على البيئة) ومقرها واشنطن، ومع مجموعة من أنصار البيئة المحليين وأصبحوا جميعاً مستثمرين بيئيين لإنقاذ الغابة المطيرة. كان آلجر وزملاؤه البرازيليون يحاربون بيد العاملين بقطع الأخشاب فى معركة سياسة عامة استمرت سبع سنوات وانتهت أخيراً فى عام 1998 بإصدار الحكومة البرازيلية حظراً على جميع أعمال قطع الأخشاب فى غابة الأطلنطى المطيرة فى باهيا الجنوبية. وباليد الأخرى أنشأ فريق آلجر ومنظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال متنزهاً إيكولوچياً وسط رقعة من هذه الغابة المطيرة ذاتها كانت قد تعرضت للإفراط فى إزالة أشجارها. واستعانوا فى ذلك بمجموعة من متسلقى الصخور المحترفين الذين استخدموا الأقواس والسهام لكى يمدوا الأحبال فوق الأشجار التى يبلغ ارتفاعها مائة قدم ثم ينسجون الأحبال ويشبكون بعضها ببعض لإنشاء ممشى ظليلاً فوق الأشجار يربط بين بيوت الأشجار. يقع هذا الممشى، الذى يبلغ عرضه نحو قدم ويهتز قليلاً عندما تخطو فوقه من قمة شجرة إلى قمة شجرة أخرى، خارج مدينة أونا، حيث كانت الغابة المطلة على الأطلنطى تغطى فى يوم من الأيام الساحل بأسره. واليوم لم ينج من نشاط قاطعى الأشجار والمزارعين الذين يستخدمون فروع الأشجار وقوداً سوى 7 فى المائة من هذه الغابة.

إن هذا الممشى الظليل شىء مذهل. ولا يجد المرء فى كل الغابات أن الهكتار الواحد يحتوى على 450 نوعاً مختلفاً من أنواع الأشجار، وكلها تتصارع من أجل ضوء الشمس. وتستطيع وأنت تسير على أطراف أصابعك فوق هذا الممشى الظليل أن تنظر إلى أحد أندر القرود على وجه الأرض، وهو القرد الأمريكى الجنوبى الصغير ذو الرأس الذهبية التى تشبه رأس الأسد، أن تنظر فى عينيه مباشرة وهو يقفز من شجرة إلى شجرة. وتستطيع أن تتفقد أعشاش النمل الأبيض التى يصل حجمها إلى حجم ثمار

نباتات اليقطين التى تتدلى من أشجار المطاط أثناء تساقط عصارتها الطبيعية. وتستطيع أيضاً وأنت تمشى فى الممرات الترابية على أرض الغابة المطيرة، التى تعتبر أيضاً جزءاً من متنزه أونا الإيكولوچى، أن تسير جنباً إلى جنب مع قوافل من النمل القاطع لأوراق الأشجار وهو يحمل على ظهره كميات من أوراق الشجر فى طريقها إلى تل النمل الذى يصل حجمه إلى حجم كومة كبيرة من أوراق نبات السلوى الإبريقى.

وقد تمكن فريق آلجر، بمساعدة من منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال، من جمع التمويل لبناء هذا المتنزه الإيكولوجى من شركة فورد للسيارات وشركة آنهويزر ـ بوش Anheuser-Busch (بادويزر Budweiser)، وكلتاهما لديها أعمال كبرى فى البرازيل، وأيضاً من وكالة المعونة الأمريكية (وكالة التنمية الدولية التابعة لحكومة الولايات المتحدة) ومن بانكوريال، ذلك البنك البرازيلى الذى يمتلك فندق ترانس أمريكا Transamerica المجاور الذى قال مديره للمسئولين البرازيليين المحليين: «أريد أن يرى السائحون فى فندقى الأشجار فى الخلفية عندما ينظرون من نوافذ الفندق، لا أن يروا أرضاً جرداء يغمرها ضوء القمر بعد أن اقتطعت أشجارها». وقد أرسلت شركة آنهويزر ـ بوش بالفعل أحد العاملين لديها فى تصميم المتنزهات، من حدائق بوش فى فلوريدا، للمساعدة فى تصميم المتنزه الإيكولوچى.

وعمل آلجر، إلى جانب إنشاء هذه المتنزه، مع عمدة مدينة أونا، وهو نفسه من قاطعى الأشجار، لإيجاد وظائف بطرق أخرى. فعلى سبيل المثال، يعمل فى فندق ترانس أمريكا 600 شخص، وهو ينظم حالياً جولات سياحية فى الغابة المطيرة. ويعمل ائتلاف آلجر على زيادة الزراعة داخل الغابة المطيرة بمحاصيل مثل الكاكاو والبن، اللذين يمكن جمع محصوليهما فى ظل الأشجار. كذلك أرسل فريق آلجر إلى الحكومة الفيدرالية البرازيلية اقتراحاً بتوفير منحة مهنية لحكومة مدينة أونا ونجح فى الحصول على تمويل من وزارة التعليم لبرنامج تدريبى متقدم لمدرسى المدارس فى مدينة

أونا. يقول آلجر: « لقد جعلت العمدة، وهو من قاطعى الأخشاب، يفقد وظيفته، وكان علىّ أن أوفر البديل لهذا الرجل وإلا قالوا إننا خذلناهم».

وثمة موقع آخر جذب اهتمام آلجر وهو مجتمع التكنولوجيا المتقدمة الذى أصبح له الآن مصداقية هائلة فى الدول النامية، حيث يحلم كل محافظ وعمدة أن يكون لديه مصنع لشذرات الكمبيوتر فى فنائه الخلفى. وقد قدمت شركة إنتل، بإلحاح من أحد مؤسسيها وهو جوردون مور الذى يشارك فى عضوية مجلس إدارة منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال، التمويل وأجهزة الكمبيوتر لفريق آلجر لوضع خريطة سليمة للغابة المطيرة والتركيز على الأشياء التى تحتاج للإنقاذ أكثر من غيرها. واستطاع فريق آلجر، باستخدام ما يسمى نظام المعلومات الجغرافية تغذية الكمبيوتر بالخرائط ثم توجيه أسئلة مهمة معينة له.

قال آلجر: «كان أهم سؤال طرحناه على الكمبيوتر يدور حول أهم النقاط والممرات المسدودة فيما بين الأقسام المختلفة للغابة المطيرة المطلة على المحيط الأطلنطى، وقد حددها لنا نظام المعلومات الجغرافية تماماً. وكانت تلك خطوة حاسمة لأن هذه الممرات تربط بين قطاعين كبيرين من الغابة المطيرة وبدونها يصبحان مجرد مجموعة من الأجزاء المفتتة المنعزلة، ومن ثم لا تستطيع تحمل الكثير من أنواع الكائنات، وبالتالى سوف ينقرض الكثير من هذه الأنواع إذا لم نحافظ على هذه الممرات. وقد أنشأنا المتنزه الإيكولوجى على واحد من هذه الممرات التى كان العمدة قد صرح بالفعل بقطع أخشابها» .

كذلك نجح آلجر فى الحصول على مساعدة جورج سان لوران، وهو أحد رجال الأعمال الأمريكيين المغامرين غريبى الأطوار، كان قد افتتح مصنعاً للكمبيوتر من أجل السوق البرازيلية، مستغلاً أحد مصانع الكاكاو المهجورة بالقرب من مدينة أونا. وقد حصل سان لوران على حوافز ضريبية من حكومة الولاية لكى يفتتح مصنعه

للتكنولوجيا المتقدمة هناك، ولكنه أبلغ المحافظ المحلى أنه يحتاج إلى أكثر من مجرد مزايا ضريبية إذا كان له أن يغرى مهندسى الكمبيوتر فى ساو باولو ووادى السيليكون على الانتقال إلى شمال شرقى البرازيل. كان بحاجة إلى بعض الخضرة وليس فقط أوراق البنكنوت الخضراء. ذلك أن الحفاظ على بيئة ممتعة يمكن أن يكون عنصراً له أهمية حاسمة فى جذب العاملين فى مجال معرفة التكنولوجيا المتقدمة الذين يكون لديهم غالباً الكثير من الاختيارات للأماكن التى سيعيشون ويعملون فيها. فلم يوجد وادى السيليكون فى كاليفورنيا اعتباطاً. قال سان لوران: «أبلغت المحافظ أننا بحاجة إلى بيئة ممتعة، وقلت له إن مهندسى الكمبيوتر يستطيعون الانتقال للحياة فى أى مكان ولكنهم يفضلون المستوى العالى من الحياة والأماكن التى يستطيعون تمضية إجازاتهم الأسبوعية فيها. فإذا تصادف أنهم يعيشون بجوار واحد من أكثر نظم التنوع البيولوجى إثارة، فقد يفضلون أن يكونوا جزءاً منه لا مجرد مشاهدين لعمليات تدميره». وقد وعد سان لوران الحكومة المحلية بتقديم أجهزة كمبيوتر منحة للمدارس المحلية فى بادرة لمساعدة آلجر فى كسب تأييد الحكومة المحلية.

وفى النهاية، خضع محافظ أونا ديجاير بيرشنر على مضض لضغوط الحكومة البرازيلية وائتلاف آلجر. وصرح لى العمدة بقوله:

«عندما سمعت لأول مرة عن هؤلاء الأنصار للبيئة، اعتقدت أنهم سوف يضطهدوننا. ولكن قبل عامين فقط بدأت أدرك أنهم يهتمون بتنمية المنطقة. فمدينة أونا يسكنها 32 ألف نسمة وتبلغ مساحتها 1,700 كيلو متر مربع. وأكبر ثلاثة أصحاب أعمال هم فندق ترانس أمريكا ومزرعة أناكو (وهى مزرعة كبيرة للكاكاو) والإدارة المحلية. والحياة هنا قاسية للغاية. إذ يعيش نحو 40 فى المائة من المواطنين هنا فى أكواخ خشبية، وقد ازدادت الأحوال سوءاً منذ انهيار صناعة الكاكاو هنا ... إننى لا ألوم

كيث على إفصاحه لنا بالحقيقة ـ إن قطع الأخشاب ليس بالعمل الدائم. وأنه يجب علينا إيجاد وظائف جديدة. ولكن يجب على كيث أن يقوم هو الآخر بدوره».

لقد كان الدرس الذى تعلمه آلجر من ذلك كله هو أن السبيل الوحيد لإنقاذ الغابة المطيرة هو ذلك السبيل الذى تنقذ به النظام المالى لأى دولة ـ بأن تعامله على أنه مجتمع ناهض، وليس سوقاً ناهضة. فإذا أنقذت المجتمع يمكنك إنقاذ الأشجار.

قال آلجر: «بدأنا بالعمل مع مجموعة من ألمع خريجى الجامعات البرازيلية المحلية من الأماكن المحيطة بنا لإنشاء معهد الدراسات الاجتماعية والبيئية فى باهيا الجنوبية. ثم بدأنا فى تدريب الناس وتزويدهم بالمهارات التى تجعل منهم محافظين عصريين على البيئة. وكان ذلك يعنى تدريس المتخصصين فى البيولوجيا كيفية التفكير فى الصفقات التجارية وتدريس الاقتصاديين أحدث التقنيات شديدة التطوير لرسم الخرائط. فلم يكن هناك حتى وقت قريب فى الجامعات البرازيلية مثل هذا المنهج المتكامل فى هذه المهارات المتداخلة، التى يحتاجها المرء حتى يصبح مستثمراً ناجحاً للبيئة فى هذه الأيام. إننا ندرب الآن جيلاً جديداً على كيفية الحصول على أعلى عائد من الدولار، والعائد الذى أتكلم عنه هو الجمع بين المحافظة على الأنواع النباتية والحيوانية وتوفير الفرص الاقتصادية والاجتماعية للبشر الذين يعيشون حول هذه الأنواع. ولقد كان من المستحيل علينا إنقاذ شجرة واحدة بدون أن نعرف كيف نفعل هذين الاثنين معاً.

* * *

الوسيلة الأخرى لبعث الخضرة فى العولمة هى أن نثبت للشركات ولحملة أسهمها أن أرباحهم وأسعار أسهمهم سوف تزيد إذا تبنّوا أساليب إنتاجية سليمة بيئياً.

شرح لى چيم ليفاين، وهو مهندس بيئى وظيفته فى هيئة الحفاظ على البيئة والتنمية فى خليج سان فرانسيسكو ويعلّم الشركات كيف تكون خضراء ونهمة فى

آن واحد، كيف يجرى العمل: «إن كل ما عليك هو إقناع الشركات وحملة الأسهم والمحللين الماليين فى وول ستريت بأن الأداء البيئى الفقير يساوى أرباحاً ضائعة. ولم يكن الأداء البيئى فى التصنيع ضمن أهداف تصميم المشروعات قبل عشر سنوات فقط. ولكن المؤشر بدأ فى التحول الآن، بعد أن أمسكت الحكومة بالعصا للشركات باستخدام القوانين الجديدة والحوافز الضريبية الجديدة معاً حتى تكون خضراء، ومطالبة هيئة الأوراق المالية والبورصة للشركات بأن تبدأ فى تحديد مسئولياتها البيئية بدقة للمساهمين ـ كأن تتعرض للتقاضى بسبب النفايات فضلاً عن تكلفة التخلص من المخلفات. فقد بدأت الشركات فى إدراك أنها إذا ذهبت إلى بانكوك وأقامت لها مصنعاً هناك يلوث البيئة ثم تراوغ الحكومة التايلاندية أخيراً فتصدر قوانين وبرمجيات تنظيمية تلزم هذه المصانع بتنظيف البيئة، فسوف يكون التعامل مع تلك المشكلة فيما بعد أكثر تكلفة من البناء وفق إجراءات خضراء منذ البداية» .

تعتبر شركة باكستر إنترناشيونال لإنتاج المواد الصحية ومقرها شيكاجو واحدة من بين الشركات الرائدة فى هذا النموذج الجديد. وفى عام1997 بلغت مبيعات شركة باكستر 6.1 مليار دولار من إنتاج ستين مصنعاً فى أنحاء العالم. وتدرج شركة باكستر ضمن بياناتها المالية السنوية لحملة الأسهم بياناً مالياً بيئياً لكل عملياتها. وقد جاء فى بيانها المالى البيئى لعام 1997 أن الأخذ بأساليب الإنتاج الخضراء التى طبقت فى ذلك العام وفرت للشركة 14 مليون دولار، وبذلك تكون قد غطت تكاليف البرنامج وزيادة. هذا بالإضافة إلى أن اجتناب مصروفات بسبب الأخذ بأساليب الإنتاج الخضراء وفر للشركة 86 مليون دولار أخرى منذ عام 1990. ويقول التقرير «إن ذلك يعنى أن شركة باكستر كانت ستضطر إلى إنفاق 100 مليون دولار أخرى فى عام 1997 على عمليات الإنتاج للمواد الأولية، وتكاليف التخلص من المخلفات والتغليف إذا لم تكن الشركة قد طبقت إجراءات فى صالح البيئة منذ عام 1990» .

ومعظم الدول ليس لديها حتى الآن قوانين فعالة بتغريم من يلوث البيئة، ولكن فى يوم ما سيكون لكثير منها مثل هذه القوانين. وهذا هو السبب فى أن شركة باكستر ذكرت فى تقريرها السنوى لعام 1997 إنه «من الأفضل لنا أن تذهب كل مخلفاتنا الدولية اليوم إلى مواقع ذات سمعة طيبة. وبذلك نكون جميعاً فى أفضل وضع لتفادى احتمال تحمل أية مسئوليات كبرى فى المستقبل». إن المسئولين التنفيذيين الذين لا يفكرون على هذا النحو لا يرعون مصالح حملة أسهمهم ويحرمون أنفسهم من مكافآت مالية أكبر.

ومع ذلك أحياناً، لا يكفى حتى هذا الحافز المادى للقيام بالمهمة. وأحياناً يكون الاستغلال الجائر للأرض وبيعها للمصالح العالمية الجشعة أكثر أرباحاً. ولا يترك ذلك أمامنا سوى استراتيچية واحدة، وهى استراتيچية قوية بحق ـ أن نتعلم كيف نستخدم العولمة ضد العولمة.

لقد اكتشفت ذلك أيضاً فى البرازيل. ليس فى الغابة المطيرة ولكن فى أراضى بانتانال الرطبة، التى زرتها مع فريق من منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال. أخذنا طائرة مروحية صغيرة إلى فازيندا ريو نيجرو، وهى مزرعة لتربية الماشية ومأوى طبيعى على ضفاف نهر ريو نيجرو، وبها مهبط عشبى للطائرات يقع فى فنائها الأمامى. كانت خطتنا تتمثل فى أن نبدأ جولتنا بإجراء مقابلة صحفية مع نيلسون دى باروس مدير البيئة فى ولاية ماتو جروسو دو سول البرازيلية. وكنت أعلم أن هذه المقابلة ستكون ممتعة عندما أصر دى باروس على أن نجريها فى وسط نهر ريو نيجرو. ركبنا لنشات مزودة بمحركات فى فازيندا وأبحرنا إلى نقطة الاجتماع عند انحناءة ضحلة فى النهر. وهناك كان دى باروس وفريقه فى انتظارنا واقفين وسط النهر ومياهه ترتفع حتى وسطهم. وعلى مقربة منهم يوجد زورق به مبرد مليء بعلب البيرة.

قال وهو يفتح علبة من شراب سكو ل والنهر يتدفق جارياً حولنا: «البيرة أولاً، ثم الحمام، ثم نتحدث بعد ذلك .

عندها اعتبرت أننى أقوم بأفضل وظيفة فى العالم.

شرح لنا دى باروس أن إقليم بانتانال الذى يقع على طول الحدود بين البرازيل وبوليڤيا وباراجواى، هو أكبر الأراضى الرطبة بالمياه العذبة فى العالم (بمساحة ولاية ويسكونسن)، وهو موطن النمر الاستوائى الأمريكى المرقّط وملجأ لكثير غيره من الأنواع المعرضة للانقراض. ومحمية بانتانال الطبيعية التى كنا نقف فيها فى منتصف النهر أشبه بمتنزه من العصر الجوراسى ولكن بدون الديناصورات. مررنا على طول النهر بعشرات من التماسيح الأمريكية الاستوائية على شاطئ النهر، وثعالب البحر العملاقة التى ترقص إلى أعلى وإلى أسفل، مع طائر البَلَشون الأبيض، وزنابق الياقوتية، والببغاوات، وطائر الطوقان ضخم المنقار، وطائر أبو منجل المائى طويل القائمتين والمنقار، وغزال المستنقعات، وطائر أبو ملعقة، وطائر اللقلاق وأنواع من النعام وكلها تتسكع خارج الغابة فى مواقع مختلفة. وقد وضح لنا دى باروس أن إقليم بانتانال على عكس الأمازون ليس مهدداً من السكان الفقراء الذين يسعون إلى تدمير الموئل من أجل التخلص من فقرهم. حقاً، إن التراث الثقافى فى إقليم بانتانال مثال نادر للإنسان والطبيعة وهما يزدهران فى انسجام باقتصاد يقوم على تربية الماشية وصيد السمك، والآن السياحة الإيكولوجية. ويأتى الخطر إلى هذا الإقليم من العولمة: فهناك الفلاحون الذين يزرعون فول الصويا على السهل الواسع المرتفع المطل على حوض بانتانال، ويتوقون إلى إشباع سوق عالمية لفول الصويا آخذة فى الاتساع بسرعة كبيرة وتعمل مبيدات الآفات والغرين التى تنصرف من مزارعهم على تلويث الأنهار والإضرار بالحياة البرية. وفى الوقت نفسه شكلت كل من البرازيل والأرجنتين وأوروجواى وبارجواى وبوليڤيا كتلة تجارية تجعلهم أكثر قدرة على التنافس عالمياً. وحتى يتسنى

لهم الخروج بإنتاجهم من الصويا من هذا الإقليم إلى الأسواق العالمية بسرعة، فإنهم يرغبون فى تطهير وتعديل مجارى الأنهار ـ حتى تتمكن مراكب نقل البضائع من الإبحار فيها على نحو أسهل وأسرع ـ ولكن بأساليب قد تضر ضرراً بالغاً بالنظام الإيكولوجى. وفى النهاية، يمد اتحاد من شركات الطاقة الدولية، بقيادة شركة إنرون، خط أنابيب للغاز يحتمل أن يشكل خطورة بيئية، عبر أراضى بانتانال يبدأ من بوليڤيا الغنية بمواردها من الغاز وينتهى فى ساو باولو المتعطشة للطاقة.

ولئن كانت العولمة هى مصدر التهديد الأساسى لإقليم بانتانال، إلا أنها أيضاً أملها فى الخلاص. أولاً، لأن سكان بانتانال لديهم الآن الفرصة للحفاظ على أسلوبهم التقليدى فى الحياة، الذى يقوم على أساس الإبقاء على طبيعة الأرض ـ وذلك بالسياحة الإيكولوجية وبيع الأبقار التى تتغذى طبيعياً لأسواق عالمية على استعداد لدفع ثمن مرتفع فى منتجات صديقة للبيئة. وعلاوة على ذلك، فقد يكون هناك ميزة فى وجود شركات متفوقة عالمياً. فقد اجتذبت تجارة فول الصويا شركات النقل البحرى العالمية الكبرى، وهى على خلاف الشركات المحلية تستطيع استخدام تكنولوچيا متطورة للغاية أقل قسوة على البيئة ـ مثل الزوارق الحديثة التى تستطيع الإبحار فى المنحنيات الحادة الموجودة فى الأنهار باستخدام محركات دفع عالية التكنولوچيا. ومن ثمة يمكن استبعاد عمليات تعديل مجارى الأنهار.

أما عندما تصبح العولمة مصدر قوة حقيقية فيتمثل فى أنها تخلق «أنصاراً للبيئة اكتسبوا قوة عظمى»، يستطيعون الآن وهم يعملون بمفردهم التصدى بفاعلية لكل من القطيع الإلكترونى والحكومات على السواء. ويستطيع أنصار البيئة فى إحدى الدول، بفضل الإنترنت، نشر تصرفات الشركات متعددة الجنسية إلى أنصار البيئة فى دول أخرى على وجه السرعة. ولذلك أصبح هناك عدد متزايد من الشركات متعددة الجنسية على وعى بأنها إذا كانت تريد المحافظة على سمعتها العالمية وفروعها المنتشرة

فى العالم أمام العناصر النشطة على الإنترنت، فإنه يتعين عليها أن تشعر بالمسئولية البيئية. وما حدث فى بانتانال، فى الواقع، هو أن أنصار البيئة المحليين اشتركوا مع أنصار البيئة فى أمريكا الشمالية فى الضغط على بنك التنمية الأمريكى الدولى الذى كان يعتزم تمويل عملية تطهير وتعديل مجارى الأنهار. وقد استجاب بنك التنمية الذى يشعر بالحساسية تجاه سمعته الدولية بالضغط على الحكومات المحلية التى تتبنى المشروع لإعادة تقييمه وإجراء تقييم بيئى شامل له. وفى النهاية، توصلت الحكومات المعنية إلى طرق لتحسين الملاحة فى الأنهار فى بانتانال بدون تغيير شكل الأنهار.

يقول جلين بريكيت نائب الرئيس لقطاع المشاركة بين الشركات فى منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال، «إن ذلك يختلف تماماً عما كان يحدث قبل خمسة عشر عاماً. انظر لما حدث فى دولة مثل البرازيل. فقبل خمسة عشر عاماً كان الحكم فى يد الجنرالات، وعندما انتقد أنصار البيئة الأجانب التنمية الاقتصادية فى الأمازون، كان كل ما فعله الجنرالات هو أن قالوا لهم: 'اذهبوا إلى الجحيم. هذه سيادتنا على أراضينا. هذا ليس من شأنكم'. ولكن، بعد ذلك، جاءت العولمة والإنترنت وبدأت الحكومة البرازيلية فى السماح لكل هذه الشركات العالمية الكبرى، بل فى الواقع فى دعوتها، للاستثمار فيها. وأدى ذلك إلى إيجاد ديناميكية جديدة. وتحولت القوة الدافعة للتنمية إلى الشركات والمؤسسات العالمية، التى لابد لها بالضرورة من القيام بعملياتها على نطاق عالمى، وتحتاج إلى حرية التحرك عالمياً، ومن ثم فهى بحاجة إلى أن تهتم بسمعتها البيئية على نطاق عالمى. فإذا استخدم أنصار البيئة فى البرازيل الإنترنت وأبلغوا زملاءهم فى الولايات المتحدة وأوروبا أن هذه الشركة العالمية تدمر البيئة فى البرازيل فسوف ينشط أنصار البيئة فى تلك الدول الأخرى. وسرعان ما تواجه هذه الشركة حملة عالمية قد تؤثر فى أعمالها، ليس فى البرازيل فقط وإنما فى العالم أجمع».

ومع انتشار الديموقراطية فى كثير من دول العالم الآن، فالأمر لا يحتاج أحياناً إلا إلى واحد فقط من أنصار البيئة يلوح برسالة، تسلّمها بالبريد الإلكترونى، فى قاعة برلمان بلاده لكى يوقف مشروع إنشاء محطة قوى كبرى أو غيرها من الصفقات الحساسة بيئياً. ومن ناحية أخرى، فقد تعلمت الشركات العالمية أنها تستطيع بدعمها لبرامج الحفاظ على البيئة تحسين صورة ماركتها العالمية بين الزبائن الذين يتزايد تقديرهم للبيئة.

قال بريكيت، «لم يعد هناك أماكن للاختباء للشركات ذات السمعة السيئة بيئياً فى عالم يربط بين العناصر النشطة على نطاق عالمى. لقد أصبح الآن بوسع الزبائن والمشرعين وحملة الأسهم فى كل مكان مكافأة أو عقاب الشركات لما تفعله فى أماكن بعيدة. إنهم يستطيعون فتح الأبواب أمام الشركات التى تحسن التصرف ويستطيعون إغلاقها فى وجه من تسيء التصرف».

يساعدنا ذلك على فهم السبب فى أن شركة فورد موتور تمول الآن البحث الذى تجريه منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال عن إقليم بانتانال، وبرنامجها لإدارة الحياة البرية هناك وتحويل مزارع الماشية فى بانتانال إلى محميات خاصة ـ بل وأيضاً ممارسة نفوذها فى البرازيل من أجل دعم حماية إقليم بانتانال. ولا جدال فى أن شركة فورد لا تسعى إلى إنقاذ بانتانال لأنها وقعت فى حب الأنواع المهددة بالانقراض فيها، وإنما لاعتقادها أنها تستطيع بيع عدد أكبر من سيارات چاجوار (النمر) إذا كانت فى نظر الناس تعمل على إنقاذ النمور الأمريكية فى إقليم بانتانال. فإذا كان هذا هو كل المطلوب من أجل إنقاذ النظام الإيكولوجى شديد الروعة وأسلوب الحياة هناك فلا يسعنا إلا الدعاء لهنرى فورد والإنترنت.

ولئن كان إنقاذ الغابة المطيرة من القطيع الإلكترونى أمراً صعباً إلا أن إنقاذ الثقافة التى تنمو حول الغابة المطيرة ربما كان مهمة أكثر تعقيداً.

فى نظام الحرب الباردة، ناهيك عن الفترات التى سبقتها من التاريخ، لم تكن الدول والثقافات تتقابل كثيراً ومباشرة وصراحة مثلما يحدث اليوم. كان السفر إلى كثير من المناطق أكثر صعوبة، وكان هناك الجدران والأسوار والأستار الحديدية والوديان والبقاع التى تختبىء وراءها الثقافات الخاصة وتحتفظ فيها بفرديتها. ولكن الثقافات اليوم معروضة للاستهلاك العالمى ويمكن مقارنتها بعضها ببعض على الإنترنت وعن طريق قنوات التليفزيون الفضائية والحدود المفتوحة بطريقة فيها قسوة داروينية. إننى أذهب لزيارة قرى فى شمال شرقى الصين لأرى كيف يبدو العالم خلف حدود العولمة وأكتشف أن الفتيات المراهقات يرتدين الأحذية جو ـ جو عالية الساق. التحم بالعولمة بدون أن يكون لديك البرمجيات ونظم التشغيل السليمة وستجد أن اقتصادك انصهر فى لمح البصر. التحم بالعولمة بدون الأدوات الصحيحة للوقاية من الاندفاعات العارمة بيئياً ، وسوف تجتاح غاباتك دهساً فى لحظة. افتح حدودك لمجزرة الثقافة العولمية بدون وجود المرشحات الواقية، وستجد أنك تستطيع الذهاب إلى سريرك معتقداً أنك هندى أو مصرى أو إسرائيلى أو صينى أو برازيلى وعندما تصحو فى الصباح سوف تكتشف أن أولادك يشبهون تابل الزنجبيل.

بعد شهر من زيارتى لقطر التى صدمت فيها برؤية تاكو بيل، توجهت إلى كوالالمبور عاصمة ماليزيا، حيث أقمت فى فندق «شانجرى–لا»، وهو من الفنادق الكبرى القديمة فى جنوب شرقى آسيا. يعجبنى كثيراً ذلك الاسم، «شانجرى–لا». إنه يبدو مثيراً وغريباً. وصلت إلى كوالالمبور فى وقت متأخر من الليل ولم يتح لى فى الحقيقة مشاهدة الكثير فى الطريق إلى المدينة، ولذلك فقد سارعت فور استيقاظى صباح اليوم التالى بفتح ستائر غرفتى فى الفندق، وكان أول ما شاهدته فوق المبنى صورة ارتفاعها طابقين للكولونيل ساندرز من كنتكى فرايد تشيكين.

قلت فى نفسى، « أوه، يا إلهى. ماذا يفعل هنا هذا الرجل؟ هل تكبدت مشقة السفر 15 ألف ميل للمجىء إلى كوالالمبور والإقامة فى شانجرى-لا ليكون أول من أراه الكولونيل ساندرز!

فى مناسبة أخرى كنت فى زيارة لأحد رجال الأعمال فى وسط مدينة چاكارتا وسألته أن يصف لى الطريق إلى المقابلة التالية. كانت تعليماته لى كالتالى تماماً، «اذهب إلى المبنى الذى يوجد فى أعلى سلمه أرمانى امبوريام ـ تعرفه طبعاً، تماماً أعلى مقهى هارد روك ـ ثم اتجه يميناً عند ماكدونالدز». لم يسعنى سوى أن أنظر إليه ضاحكاً وتساءلت، «أين أنا؟»

والهند من الدول التى بذلت جهداً فى محاولة مقاومة الكثير من التجانس الثقافى العالمى. ولكنه حتى هناك، وبين الصفوة فى الهند، ينشط القطيع الإلكترونى فى وضع بصمته. كنت فى نيودلهى فى إحدى أمسيات الحر الخانق لصيف عام 1998 لإجراء مقابلة صحفية مع رئيس الوزراء الهندى الأسبق آى. كى. جوچرال البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً، ويعتبر من أكثر السياسيين فى الهند ثقافة. بدأ المقابلة باستعادة شىء قاله له ممثل كندا فى مؤتمر لليونسكو، بعد أن تقدم رجل الدولة الهندى بقرار قصد به ضمان أن يكون «النظام الإعلامى الجديد» الذى يسيطر على العالم تبادلاً بين طرفين للثقافة والمعلومات ـ وليس مجرد تدفق لثقافات الدول المتقدمة فى الدول النامية. فقد ذهل جوچرال من أن ممثل كندا يؤيد القرار الذى تقدم به. ويعود جوچرال بالذاكرة ويقول: «سألته لماذا تساند كندا هذا القرار». «أجابنى قائلاً، 'لأننا نعانى بالفعل مما تخشاه. لم يعد هناك موسيقى أو مسرح أو أفلام أو ثقافة أو لغة كندية'. لقد تأمركت جميعاً».

عندما سألته عن سبب هذه الأهمية التى يوليها لهذا الموضوع قال جوچرال الذى يرتدى الزى التقليدى الهندى ما فحواه أنه ما لم تحافظ على بعض أشجار

الزيتون على الأقل فى فنائك الخلفى، فلن تشعر قط بالألفة فى بيتك ذاته. سأل صوت عال، «ما هى جذورى؟ جذورى ليست مجرد أننى أعيش هنا فى الهند. جذورى هى أننى أسمع أحدهم يتلو شعراً بلغتى الوطنية. جذورى أن أسمع وأنا أمشى فى الطريق من يغنى أغنية بلغتى الوطنية. جذورى هى أن أجلس فى بيتى معك وأنا أرتدى زيّى الوطنى. إن تقاليدنا ترجع إلى ألف سنة. ولا تستطيع أن تتركها هكذا تضيع فى لحظة. وسوف يكون العالم أكثر ثراء إذا أبقينا وشجعنا الصفات المميزة والتنوع للثقافات المختلفة».

إننى أتفق تماماً مع جوچرال، ربما لأننى ولدت وترعرعت فى مجتمع صغير نسبياً فى مينيسوتا. فالعولمة يمكن أن تطيح بالتفرد. إن اقتلاع شجرة زيتونك أو وتجانسها لكى تصبح نوعاً من اللباب العالمى يعنى أن تفقد مغزى وجودك فى العالم.

كنت فى إحدى الأمسيات أمزح حول هذا الموضوع فى القدس مع صديقى يارون إيزراحى المنظّر السياسى، عندما ألقى بملاحظة لاذعة. قال : «أتعلم يا توم، هناك طريقتان تستطيع بهما أن تشعر أحدهم بأنه مشرد لا بيت له ـ إحداهما أن تدمر بيته والأخرى أن تجعل بيته يبدو له كأنه بيت أى إنسان آخر».

كيف السبيل إلى منع حدوث هذا النوع من التشريد؟ أول ما نفعله هو أن نفهم أن العولمة ـ الأمركة لا تعنى فقط الدفع بل تعنى أيضاً الجذب. والناس فى أنحاء العالم يرغبون فى أن يصبحوا جزءاً من العولمة لأسباب كثيرة. فهؤلاء القطريون الذى تزاحموا فى مطعم تاكو بيل على كورنيش الدوحة لم يجيئوا من أحد الملاهى السارة أو من حانة مجاورة مليئة بالتحف البراقة وأشجار السنديان. فقبل أن يوجد تاكو بيل على ذلك الكورنيش، ربما كان هناك كشك على الرصيف يغزوه الذباب، وشخص يقوم بالشواء على الفحم فى ظروف تفتقر إلى النظافة، بدون إضاءة وبدون دورة مياه.

وقد حظى القطريون، بدلاً من كل ذلك بشيء لم يتذوقوه من قبل، الطعام المكسيكى، ومعه دورة مياه نظيفة، ومستويات دولية من النظافة، وترحيب فى الخدمة ورقابة على الجودة ـ كل ذلك بسعر رخيص يقدرون عليه. فلا عجب إذن أن يكون مزدحماً.

وثمة شيء آخر يقدم إليهم، شيء أقل وضوحاً، ولكنه أكثر قيمة للكثيرين منهم. اكتشفت ذلك للمرة الأولى فى ماليزيا. كنت ذاهباً لمقابلة وزير المالية، وأثناء انتظارى فى الحجرة الملحقة بمكتبه قدمنى مساعده الصحفى لرجل أعمال ماليزى جاء هو أيضاً لمقابلة الوزير. قدمه لى بقوله، «هذا هو السيد إسحق إسماعيل الذى يمتلك امتيازات كنتكى فرايد تشيكين فى ماليزيا». وعلى الفور أخرجت مفكرتى الآى بى إم الإلكترونية وتمسكت بإجراء لقاء صحفى معه.

سألته: «قل لى، ما هو أكثر ما يجذب الماليزيين فى كنتكى فرايد تشيكين؟ قال إنهم لا يحبون مذاقها فقط بل إنهم يحبون أكثر ما تمثله: العصرية، والأمركة، ومجاراة الموضة. قال السيد اسماعيل موضحاً: «أى شيء غربى، ولا سيما أمريكى، يحبه الناس هنا، إنهم يريدون أن يأكلوها ويصبحوا على شاكلتها. لقد شاهدت الناس فى المدن الريفية الصغيرة فى ماليزيا يصطفون فى طوابير أمام كنتكى فرايد تشيكين ـ إنهم يأتون من كل مكان للحصول عليها». إنهم يريدون أن تكون لهم صلة بأمريكا. الناس هنا يحبون كل ما هو عصرى. إنهم يشعرون أنهم عصريون عندما يأكلونه». حقاً، فالذهاب إلى مطعم كنتكى فرايد تشيكين فى المناطق الريفية فى ماليزيا هو أرخص رحلة يستطيع كثيرون من الماليزيين القيام بها إلى أمريكا.

يذهب الماليزيون إلى مطاعم كنتكى فرايد تشيكين ويذهب القطريون إلى تاكو بيل لذلك السبب الذى يجعل الأمريكيين يذهبون إلى استوديوهات يونيفرسال ـ لرؤية المصدر الذى يمنحهم أحلامهم الخيالية. واليوم، أصبحت العولمة، سواء فى السراء أو

فى الضراء، هى وسيلة نشر الفانتازيا (الخيال المبتكر) الأمريكية حول العالم. فى الوقت الحاضر يعرف الناس فى القرية العالمية أن هناك طريقة أخرى للحياة، يعرفون أسلوب الحياة الأمريكية، والكثيرون منهم يريدون أكبر شريحة ممكنة منها ـ بكل ما يعلوها من أشياء لذيذة. بعض الناس يذهبون إلى عالم ديزنى للحصول عليها، وبعضهم يذهبون إلى مطاعم كنتكى فرايد تشيكين فى شمالى ماليزيا. لقد عبرت لى آيڤى جوسياه ذات مرة، وهى شابة ماليزية من العناصر النشطة المطالبة بحقوق الإنسان، عن المشاعر المختلطة لجيلها من الشباب إزاء هذه الظاهرة. قالت: «إننى أشعر بالأسى عندما أفكر فى كيف أن مطاعم الأكشاك التقليدية سوف تلتهمها مطاعم كنتكى فرايد تشيكين وماكدونالدز وتشيلليز. إننا نفقد هويتنا الخاصة. لقد ترعرعنا على مطاعم الأكشاك هذه. ولكن الجيل الأصغر منا لم يتعامل معها. إن المرء يذهب إلى تلك الأكشاك الآن فيجد فيها الفئران والمياه غير النقية. وأصبح أهم نزهة للطفل الماليزى الآن أن يذهب إلى بيتزا هت. العولمة هى الأمركة. إن الصفوة هنا يقولون، «يجب ألا نفتح أبوابنا لماكدونالدز. ولكن الشباب الذين لا يمكنهم السفر إلى أمريكا يريدون أن تأتى أمريكا إليهم هنا».

لكل هذه الأسباب يصبح من السذاجة التفكير فى أنه يمكننا بطريقة ما أن نمنع القوة العالمية الساحقة لماكدونالدز أو تاكو بيل من افتتاح فروع لها فى كل مكان حول العالم. إنها تنتشر لأنها تقدم للناس شيئاً يريدونه، أما أن تقول للناس فى الدول النامية إنهم لن يستطيعوا الحصول عليها لأنها قد تفسد المنظر والتجربة على الناس القادمين للزيارة من الدول المتقدمة فقد يكون ذلك تفكيراً متعجرفاً وعقيماً بصورة لا تحتمل.

بيد أن ذلك سيؤدى، من الوجهة الثقافية، إلى فقدان شىء ما ـ بالنسبة لهم وبالنسبة لنا ـ كلما انتصبت أمامنا هذه الاستثمارات العالمية فوق كل تل، وفى صالات الوصول فى كل مطار، وفى كل ركن نذهب إليه. والأمل الوحيد ـ وهو

مجرد أمل ـ هو أن الدول أيضاً سوف تتعلم كيفية تطوير مرشحات متعددة لمنع ثقافاتها من الزوال بفعل ذلك الجذب والدفع لرأس المال العالمى. ففى ضوء قوة العولمة وسرعتها اليوم، سوف تنقرض تلك الثقافات التى لا تتمتع بالقوة الكافية لكى تفعل ذلك، مثلها مثل أنواع الكائنات الأخرى التى لا تستطيع التكيف مع التغييرات التى تحدث فى بيئتها.

وفى اعتقادى أن أهم هذه المرشحات هو القدرة على الجمع بين العالمية والمحلية «العوحلية». وتعريفى للجمع بين العالمية والمحلية أو العوحلية الصحية هو قدرة ثقافة ما، فى مواجهتها لثقافات قوية أخرى، على امتصاص التأثيرات التى تتوافق طبيعياً معها وأن تثرى هذه الثقافة، وقدرتها على مقاومة تلك الأشياء الدخيلة بحق، وقدرتها على أن تحتوى تلك الأشياء التى يمكن، رغم اختلافها، الاستمتاع والاحتفاء بها لأنها شىء مختلف. إن كل ما تهدف إليه «العوحلية» هو قدرتك على أن تجعل بلادك وثقافتك تمتص مظاهر العولمة بطريقة تمثل إضافة لنموها وتنوعها بدون أن تطغى عليها.

«العوحلية» فى الواقع عملية قديمة جداً، تعود إلى العصور القديمة، عندما واجهت الثقافات المحلية، على سبيل المثال، انتشار الهيللينية وحاولت امتصاص أفضل ما فيها دون أن تطغى عليها. واليهودية مثال كلاسيكى للثقافة الدينية التى امتصت مؤثرات من كثير من الدول المختلفة على مر الأجيال، بدون أن تفقد أبداً لب هويتها. يشير مدرسى تزفى ماركس المتخصص فى الديانة اليهودية أنه عندما واجه اليهود الإغريق لأول مرة فى القرن الرابع قبل الميلاد، كان أكثر الأشياء التى امتصها الفكر اليهودى بعمق هو المنطق الإغريقى الذى تجانس مع تعاليم التوراة والحاخامات فى ذلك الوقت.

يقول ماركس: «كان هذا الامتصاص للمنطق الإغريقى سهلاً نسبياً؛ لأنه كان متصلاً بصورة عضوية بما يفعله الحاخامات ودارسو التوراة فى تلك الأيام، وكان يتمثل فى رعاية الحقيقة. وتظهر علامة الامتصاص الصحى عندما يستطيع مجتمع ما أن يأخذ شيئاً من خارجه، وأن يتبناه وكأنه نابع منه، وأن يعيد تهيئته ليتناسب مع الإطار المرجعى له وينسى تماماً أنه جاء من خارجه. يحدث هذا عندما تلمس القوة الخارجية التى امتُصت شيئاً كامناً فى ثقافتك الخاصة، وإن يكن غير ناضج تماماً، وتعمد المواجهة مع الحافز الخارجى حقيقة إلى إثراء ذلك الشىء الكامن ومساعدته على الازدهار». وهذا هو الطريق الذى تتقدم به أنواع الكائنات والثقافات.

غير أنه فى ذلك الوقت الذى انفتح فيه اليهود على المنطق الإغريقى انفتحوا أيضاً على الاحتفاء الإغريقى بالجسد، ناهيك عن انشغالهم الكامل بإله الحب إيروس وبتعدد الآلهة. ولم يمتص اليهود هذه المؤثرات. فقد كانت فى نظرهم دخيلة، وظلت كما هى دخيلة. كان الإغريق يستمتعون بمشاهدة الرياضات العارية. ولم يفعل اليهود ذلك، ولم يمتصوا قط تلك الجزئية من الثقافة الإغريقية. واعُتبر الذين فعلوا ذلك بأنهم قد تجانسوا معها وفقدوا إحساسهم الأصيل بذواتهم. وفى النهاية، كانت هناك أشياء للإغريق يأكلونها وأساليب فى الملابس انتقى بعضها اليهود فى تلك الأيام واستمتعوا بها لمجرد أنها مختلفة، ولكنهم أبداً لم يجعلوها خاصة بهم. وبعبارة أخرى وباستخدام المصطلحات اللامعقولة: إنهم لم يتخلوا عن شوربة فطائر خبز كرة الماتزو لكى يأكلوا السوفلاكى، ولكنهم أكلوا السوفلاكى واستمتعوا به لأنه شىء مختلف.

و«العوحلية» الصحية هى دائماً عملية تجربة وخطأ، ولكنها عملية ضرورية بلا حدود. ففى عالم أزيلت فيه كثير من جدران وأسوار وخنادق الحماية، وسوف تستمر إزالتها، ستكون للثقافات التى تحسن عملية «العوحلية» ميزة حقيقية، أما تلك الثقافات التى لن تحسنها فسوف تحتاج إلى أن تتعلم ذلك. هناك بلا شك بعض

الثقافات التى لا تحسن «العوحلية»، وهذا يجعلها مهددة تماماً من جانب العولمة. وعندما لا تجيد الدول أو الثقافات العوحلية فإنك تحصل على رد فعل من نوع منظمة طالبان الإسلامية الأصولية فى أفغانستان: إنها تخشى مواجهة التجربة والخطأ مع العولمة لأنها تخشى أن ينتهى كل شىء إلى الخطأ وأن يقضى على ثقافاتهم، ولذلك يسدلون الخمار على بلادهم بأسرها، أو يحاولون بناء أسوار أعلى وأعلى. ولكن هذه الأسوار سوف يجتاحها القطيع الإلكترونى لا محالة، وعندما يحدث ذلك ويبدأ الناس فى فقدان هويتهم الثقافية سينتهى بهم المطاف إلى أن يصبحوا وقد استوعبتهم ثقافة أخرى فى بلادهم ذاتها. وتصبح بلادهم مجرد مكان تمر من خلاله دول وثقافات أخرى .

وثمة خطر آخر. قد تظن بعض الثقافات أنها تسير نحو «العوحلية» بصورة صحية، ولكن هناك فى الواقع ما يستوعبها ويفقدها هويتها بأسلوب الحركة البطيئة الماكرة. وثمة مثال مبتذل ولكنه واضح لذلك يتمثل فى الطريقة التى استوعبت بها الثقافة والعمارة اليابانية ماكدونالدز اليابان. يوجد فى اليابان 2000 مطعم من ماكدونالدز اليابان الذى يعرف أيضاً باسم «ماكدونالدو». وهو أكبر امتياز لماكدونالدز خارج الولايات المتحدة. وقد حقق ماكدونالدز اليابان نجاحاً كبيراً فى إدماج نفسه فى اليابان إلى حد أن هناك قصة تروى عن فتاة يابانية صغيرة وصلت إلى لوس أنجيليس، ونظرت حولها، وشاهدت بعض مطاعم ماكدونالدز، فشدت كم أمها وقالت لها: «انظرى يا أمى، عندهم ماكدونالدز فى بلدهم أيضاً». قد تلتمس العذر للطفلة الصغيرة لاندهاشها بأن ماكدونالدز شركة أمريكية، وليست فى الواقع شركة يابانية. (لقد غير اليابانيون العاملون فى ماكدونالدز اسمه من رونالد ماكدونالد إلى «دونالد ماكدونالد» ليجعلوه أكثر سهولة فى النطق على اليابانيين). قال لى چيمس كانتالوبو رئيس شركة ماكدونالدز إنترناشيونال: «إنك لا تفتح لك ألفى محل فى اليابان لمجرد أنك شركة أمريكية. كلا. إن ماكدونالدز لا يقدم سوى اللحم والخبز والبطاطس.

والناس فى أنحاء العالم يأكلون اللحم والخبز والبطاطس. ولكن السر يكمن فى الشكل الذى تقدمها به والخبرة التى تعرضها».

وقصة الفتاة التى لم تكن تعرف أن ماكدونالدز مصدره شيكاجو وأن مؤسسه رجل يدعى راى كروك، وهو لا يمت لليابانيين بصلة، تعنى بالنسبة لى علامة على «العوحلية» غير الصحية. أما إذا عوملت شطيرة بيج ماك على أنها شىء مختلف وأن الاستمتاع بها مرده إلى أنها شىء مختلف فتلك هى العوحلية الصحية. العوحلية غير الصحية هى أن تمتص شيئاً ليس جزءاً من ثقافتك، ولا يرتبط بأى شىء كامن فى ثقافتك، ولكنك فقدت صلتك بثقافتك إلى درجة أنك تعتقد أن هذا الشىء جزء منها. يقول تزفى ماركس: «فى مجال الطب يقولون إن من بين الطرق التى ينفذ بها فيروس السرطان إلى الخلية أن يتخفى بحيث لا تعرف الخلية بوجوده داخلها وتعتقد أن السرطان جزء عضوى منها ـ وتظل الخلية على هذا الاعتقاد إلى أن يكون الوقت قد فات، ويكون السرطان قد استولى على نواة الخلية وفجأة تصبح الخلية فى خبر كان». وهذا قد يحدث ـ عندما تلعب العوحلية دور فيروس السرطان الذى يخدعك بحيث تظن أنه شىء ينتمى إليك، وهو ليس كذلك. قد أكون سعيداً بانتشار محال ماكدونالدز فى اليابان وسعيداً بوجود بار يقدم مشروب السوشى اليابانى بالقرب من منزلى فى مدينة بيثيسدا الأمريكية . وقد أكون سعيداً لأن الفتاة الصغيرة فى قصتنا تلك تحب ماكدونالدز، قدر سعادتى بأن ابنتى تحب السوشى. ولكن المهم أن تحب هذه الفتاة اليابانية ماكدونالدز لأنه مختلف، وليس لأنها انخدعت بحيث اعتقدت أنها بالفعل محال يابانية. وعندما يحدث ذلك يصبح التجانس على مقربة. وعندما يحدث ذلك لن يكون هناك ما يمنع من أن تفقد تلك الفتاة اليابانية فى نهاية الأمر الاتصال بكل ما هو يابانى بحق، وسوف تستيقظ فى يوم من الأيام لتجد نفسها مثل تلك الخلية وتكتشف أنها تعرضت للغزو ولم يبق شىء من ذاتها وثقافتها.

ومع ذلك، فإن العولمة وحدها، حتى فى أشد أشكالها صحة، ليست كافية لحماية الثقافات الأصلية من العولمة. إذ لابد أيضاً من وجود بعض المرشحات القوية. بدايةً، أنت بحاجة إلى قوانين للتطويق، وقوانين المحميات وبرامج تعليمية للحفاظ على المناطق الفريدة والتراث الثقافى من التطورات الماكرة التى تعمد إلى التجانس. وليس معنى ذلك أن تقول لا لكل ماكدونالدز، ولكنه قد يعنى أن تقول لا لماكدونالدز فى أحياء معينة. وذلك يتطلب تخطيطاً قوياً يضعه مسئولون بيروقراطيون لا يمكن شراؤهم وسياسيون على استعداد للاعتراف بالقيمة الحقيقية للحفاظ على التراث.

ظل الجنوب الفرنسى، كما هو الجنوب الفرنسى، إلى حد ما، لأن ألمانيا تقدم عن طريق الاتحاد الأوروبى الدعم للزراعة الفرنسية، بحيث يظل صغار المزارعين الفرنسيين، ومن ثم صغار التجار وصغار القرى صامدين دون مساس بهم ـ على الرغم من الضغوط العالمية التى يتعرضون لها من أجل تجميع المزارع وتحويل القرى إلى أسواق لكل شىء. وبعبارة أخرى، إن ما يعجبنا فى الجنوب الفرنسى يقوم على أساس سياسات تقدر القيمة الحقيقية للحفاظ على التراث الثقافى. إنه يقوم على سياسات زراعية أوروبية مشتركة وانتقال الأموال عبر الحدود لكى تدعم زراعة المساحات الزراعية الصغيرة بغية الإبقاء على القرى الصغيرة هناك دون مساس، لأنها فى نظرهم، مصدر للثراء الثقافى إلى حد ما. نحن إذن بحاجة إلى مثل هذه الأنواع من شبكات الأمان الاجتماعى من أجل الحفاظ على تراثنا الثقافى. ويجب أن يعلم السياسيون جماهير الشعب بقيمة شبكات الأمان الثقافى وأن يكونوا على استعداد لإقناعهم.

وفى الدول النامية، حيث لا توجد بعد طبقة وسطى كبيرة بدرجة تكفى للاهتمام بحماية التراث الثقافى أو حتى للضغط من أجل ذلك، وحيث تتسم فيها قوانين التطويق والتشريع البيئى بالضعف، سواء كان بالخروج عليها أو لأنها أساساً غير موجودة، فإنك بحاجة أكبر إلى الاعتماد بشدة على مرشّح آخر ـ وهو السوق. إنك

عندما تجيء إلى أحد قاطعى الأخشاب فى إندونيسيا، لديه أسرة مكونة من اثنى عشر شخصاً يجب عليه إعالتهم، ثم تقول له إنه يجب عليه حقيقة عدم تجريد الغابة المطيرة من الأشجار أو إحراقها لأنها جزء من التراث الثقافى لبلاده، فلن تصل ببساطة إلى نتيجة. سيقول لك، «إذا كنت تريد الحفاظ عليها ـ فعليك أن تشتريها». لابد من أن يرى الناس أن المحافظة على تراثهم الثقافى مرتبط برفاهيتهم ولا يعنى التضحية بأنفسهم فى سباق الرخاء. ويمكن أن تلعب السياحة دوراً مهماً فى إيجاد حوافز للسكان المحليين للحفاظ على خصائص مكان ما وتقاليده. فالسائحون دائماً يريدون أن يعرفوا: هل باستطاعتهم أن يتنفسوا هواء نقياً؟ هل باستطاعتهم شرب ماء نقى؟ هذه هى المسائل المهمة بالنسبة لمن ينشئ فندقاً ويريد أن يبيع وجبة العشاء للسائحين بمبلغ 20 دولاراً بدلاً من دولار واحد للمواطنين. وأحياناً يكون أفضل طريق لحماية هرم أو موقع للتنقيب عن الآثار أو حى له طابع فريد، هو أن تجعل الحفاظ عليه مربحاً لمن يعيشون بالقرب منه.

فى عام 1997، كنت ذات مرة فى زيارة لجزيرة بالى الإندونيسية حيث كنا أنا وزوجتى نشاهد هناك أحد أجمل المواقع الدينية، پورا تاناه لوت، وهو ذلك المعبد الذى شيد فوق بروز صخرى ساحلى. وحينما يأتى المد، يصبح هذا البروز الصخرى والمعبد منعزلين بفعل الأمواج المتكسرة على الصخر. وهو منظر خلاب يجتذب ملايين السائحين الإندونيسيين الذين يأتون إليه ويقدمون القرابين الهندوسية. وصلنا إلى الموقع عند غروب الشمس، وحينما ذهبت لالتقاط صورة لزوجتى بحيث يكون المعبد فى خلفيتها لاحظت وجود إحدى عربات الجولف تسير مسرعة. لقد أنشئ ملعب للجولف على طول الساحل، لا يبعد عن المعبد إلا ببضع مئات من الأمتار، وكان ممر عربة الجولف يمر على طول خط الشاطئ تماماً. والآن، أنا بالفعل أحب الجولف، ولكننى أحب أيضاً المشاهد الطبيعية التى تأخذ بالألباب وأحترم المعابد المقدسة. وكان

من الواضح أنه لم يكن هناك تخطيط فى الموافقة على موقع ملعب الجولف هذا، أو أن الموظفين فى المحليات المسئولين عن التخطيط قد ارتشوا.

ولاعجب إذن فيما نشرته صحيفة ***جاكارتا بوست*** فى أثناء الأسبوع الذى قضيناه هناك عن أن بعض الفنانين من بالى أقاموا معرضاً فنياً للاحتجاج على انتهاك الجرارت لجنتهم. قالت الصحيفة إن المعرض تضمن لوحة لكرة الجولف متجهة نحو فى موكب هندوكى، ولوحة أخرى تمثل جزيرة بالى على صورة كرة جولف يلعب بها العالم، وصورة أخرى لأحد المزارعين وهو يستخدم مغرفته مثلما يفعل لاعب الجولف بعصاه ـ إلا أنه يطوحها تجاه القائمين بتحويل المنطقة إلى ملعب للجولف. وقد أطلق على المعرض اسم له دلالته: «عولمة بالى glo-BALI-zation».

إذا واصلت بالى السير فى هذا الطريق الذى تدمر به نفسها فإن ذلك معناه نهاية لصناعة السياحة بها. حقاً، كان الكتاب السياحى الذى استعنا به لإرشادنا أثناء زيارة بالى، وهو أحد الكتب السياحية لشركة كنوف، قد كتب قبل سنتين من زيارتنا، يقول ما يلى عن موقع پورا تاناه لوت: «إن الأعمال المكثفة لتحويل المكان إلى مزار سياحى محيرة، وهى حتى لم تنته بعد: إذ يجرى التخطيط لإنشاء فندق فخم وملعب للجولف. إنه مكان ما زال حتى الآن يستحق الزيارة». وعندما يبدأ المرشدون السياحيون فى تحذيرك من أن البلاد تفرط فى استغلال تراثها الثقافى ذاته ويقولون لسائحيها أن يسارعوا بزيارة معالمها السياحية قبل أن تضيع، فإنك تدرك أن هذا البلد قد دخل فى منطقة خطرة. وأخشى أن تتضمن النسخة التالية من دليل كنوف ببساطة ما يلى: «تأخرت كثيراً. اذهب إلى مكان آخر».

هذا هو السبب فى أن حافز الربح غير كاف رغم ضرورته فى بعض الأوقات، لأنه يمكن بسهولة شديدة أن يؤدى إلى المتاجرة بكل قيمة تراثية واستغلالها. كما أنك بحاجة أيضاً إلى طبقة وسطى وصفوة لديهما ما يقدمانه من الالتزام الكافى

بالتحرك الاجتماعى بما يحافظ على رموزها الثقافية، حتى وإن كان ذلك غير مربح مادياً ـ بل وبالتحديد عندما يكون ذلك غير مربح مادياً. عندما يتعلق الأمر بالحفاظ على الجوانب غير التجارية فى الحياة فلا تستطيع أن تطلب الكثير من السوق، وأنت لا تريد أيضاً من السوق أن تفعل الكثير.

يرى فريد زكريا رئيس التحرير الإدارى لمجلة **فورين أفيرز** *Foreign Affairs* وهو من أصل هندى، أنه «على المدى الطويل سوف يكون من قبيل الأوهام أن تظن أن السوق ودافع الربح وحدهما يكفيان لحماية التراث الثقافى لدولة ما أو أصولها البيئية. إن ذلك ببساطة لن يحدث. لأن ما تفعله العولمة هو إكساب الرجل العادى القوة. إنها تكسب الرجال والنساء العاديين القوة فى أن يقوموا بجميع هذه الاختيارات، وعندما يحدث ذلك فلا بد أن تكون لديهم الاختيارات التى تبدو أكثر جاذبية لهم، وأكثر عصرية، وأكثر إغراءً، وأكثر ملاءمة، وأكثر ربحاً. قد يرغبون فى وجود أسواق شاملة فى كل شارع وتاكو بيل فى كل ركن ـ حتى وإن أدى ذلك على المدى القصير إلى القضاء على تراثهم الثقافى المحلى والقومى. وهذا هو السبب فى أنه لا يكفى مجرد أن تستغل السوق، بل عليك أن تضع ضوابط لها. ولكنك لكى تضبطها ستكون بحاجة إلى الصفوة المستعدة لحماية الأشياء من طغيان السوق ـ أن تنشئ مساحات لا تتحكم فيها السوق أو تغزوها، وبذلك تحمى كل تلك الجوانب اللاعقلانية واللاقتصادية التى تمثل الصفات القومية لدولة ما. ودائماً تكون الصفوة وحدها التى تحميها ثروتها الخاصة على استعداد للاهتمام بمثل هذه الأشياء. لقد ساعدت أسرة روكفلر فى إنشاء نظام المتنزه القومى فى أمريكا. وأسس الرأسماليون العظام متحف متروبوليتان بعد أن قالوا إننا بحاجة إلى متحف ليس له علاقة بالسوق».

ولئن كانت كل هذه المرشحات التى تحمى التراث الثقافى والبيئة معقولة من الناحية النظرية إلا أنك بحاجة إلى أن تجعلها تعمل جميعاً على الفور حتى يكون لديك أى أمل فى أن تؤتى ثمارها. فلن يدر متنزه الغابة المطيرة وحده عائداً كافياً لمنع قطع الأخشاب تماماً. وليست لدى المسئولين البيروقراطيين وحدهم الإرادة السياسية الكافية لتنفيذ كل القوانين البيئية. ولن تكون الشركات الخضراء وحدها كافية على الإطلاق لإبطاء سرعة تدهور البيئة. ولن تكون العناصر النشطة على الإنترنت وحدها قط كافية فى كبح جماح القطيع الإلكترونى.

ولهذا السبب آمل، بل الواقع أننى أعتقد، أننا ونحن بسبيلنا إلى دخول ذلك العقد التالى من العولمة أن يقيم شخص ما، أو حزب ما، برنامجه السياسى على أساس فكرة أن تعمل كل هذه المرشحات معاً. وأنا لا أتكلم عن جرينپيس (السلام الأخضر)، وإنما أتكلم عن الأحزاب والسياسيين البارزين.

ولسوف يبدأ ذلك فى الدول المتقدمة ثم يأخذ بعد ذلك فى الانتشار. والأنباء الطيبة هى أن هذه السياسات أصبح لها الآن اسم ـ «قضية القدرة على استمرار الحياة». ففى الولايات المتحدة بدأ آل جور نائب الرئيس فى تبنى هذه القضية. وهو يرى أن القدرة على استمرار الحياة تتطلب «نمواً ذكياً»، وأن النمو الذكى يتطلب السياسيين الذين يضعون مجموعة من القوانين والحوافز والمبادرات التى من شأنها أن تجعل كل هذه المرشحات تعمل معاً. والعنصر الأساسى فى استراتيچية جور هو إيجاد «سندات لأمريكا أفضل». ويسمح هذا البرنامج، من خلال الدعم الضريبى الفيدرالى، للمجتمعات بجمع ما يصل إلى 9.5 مليار دولار وذلك بطرح سندات ثم استخدام هذه الأموال فى شراء المساحات المفتوحة التى ما زالت خضراء، واستعادة المتنزهات التى تذوى، وتجديد المناطق التى دمرت فيها البيئة وما زال بالإمكان استعادتها، ولا سيما المناطق الداخلية فى المدن. فكلما استصلحت المناطق الداخلية فى المدن قلت الضغوط لزحف المبانى على المناطق الخضراء.

لن تسنح الفرصة لكبح جماح الخطط التجارية التى لا تلين، والمنسقة، والممولة تمويلاً جيداً وذات الكفاءة لشركات مثل نايك، وإم تى فى MTV، وماكدونالدز، وبيتزا هت، وإنرون وتاكو بيل سوى بسياسات منسقة لا تلين تزيد من القدرة على استمرارية الحياة وتمكن مجتمع ما من النجاح فى تشغيل كل المرشحات البيئية والثقافية الضرورية فى تناغم. قد يكون ذلك الآن مجرد أمل أو رجاء، ولكنه أمل ورجاء ضروريان ـ فلن تكون هناك عولمة مستدامة ومتواصلة بدون الحفاظ على البيئة والحفاظ على التراث الثقافى.

جميعها يسير جنباً إلى جنب. فالتراث الثقافى يزدهر ويستمر فى ظل بيئة أصلية. إن أكثر القبائل إثارة للاهتمام وأكثرها تنوعاً فى منطقة الأمازون تعيش فى أكثر المناطق احتفاظاً بأصالتها وخلواً من التلوث وأقلها تطوراً. كما أن أكثر المدن والأحياء والمناطق والمجتمعات تنوعاً فى أمريكا أو فى قطر أو فى جنوب فرنسا هى تلك التى لم يطغ التطوير والأسواق الشاملة على طبيعتها بحيث تبدو أشبه بأى مكان آخر فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وتعتبر إسرائيل من حالات الدراسة الشيقة فى هذا الصدد، لأنها مكان له تراث ثقافى قوى يرجع إلى آلاف السنين، وبيئة ترتبط أكثر من أى مكان آخر فى العالم بكل تل وصخرة ذكرت فى التوراة. ومع ذلك، تصارع جمعية حماية الطبيعة فى إسرائيل الزحف المدنى المكثف على البلاد. لأنك إذا غرست شجرة على التلال القائمة بين القدس وتل أبيب فعليك أن تذهب لرؤيتها سريعاً. فربما لن تظل هناك فترة طويلة، لأنه بحلول عام 2020 سوف تصبح المنطقة الممتدة من حيفا إلى تل أبيب إلى القدس على الأرجح امتداداً عمرانياً ضخماً ملتحماً واحداً. فالإسرائيليون يقومون بالبناء وكأنهم يعيشون فى أستراليا ـ المزيد أفضل، الأكبر أفضل، الأوسع أفضل. وإذا استمرت الاتجاهات السكانية الحالية، فسوف تصبح إسرائيل من أكثر الدول كثافة

سكانية فى العالم فى المساحة التى تقع إلى خارج صحراء النقب. والمؤسف أن الأقواس الذهبية لماكدونالدز تحتل الآن قمة أحد التلال الشهيرة التى تصادفك وأنت تدخل إلى القدس أو تخرج منها من ناحية الغرب.

ويتعين على إسرائيل أن تشعر بحساسية أكبر تجاه التنمية المستدامة لأنها بالتحديد لا تستطيع أن تحدّ مطلقاً من هجرة اليهود إليها. وإلا فإن التراث الإسرائيلى ـ الصهيونى سوف يفقد البيئة التى خرج منها ويرتبط بها ارتباطاً حميماً. قال لى آفرام شاكيد منسق الحماية فى جمعية حماية البيئة فى إسرائيل موضحاً ونحن نقضى صباح أحد الأيام فى مراقبة البلدوزرات وهى تقتطع بضع قضمات من التلال اليهودية: «إن كل مشروع نال الموافقة وفقاً للخطة القومية، ثم يدمر فضاءً مفتوحاً، فهو يدمر معه جزءاً من التراث اليهودى ـ المناظر الطبيعية التى ذكرت فى التوراة فى عهد داود وسليمان. فالتوراة تشير إلى كروم بن شيمن. واليوم أصبح بن شيمن أكبر تقاطع طريق سريع فى البلاد. إننا ما زلنا نتحدث عن 'أرض إسرائيل' على نحو ميتافزيقى، ولكننا ننسى الأرض الفعلية».

تدخل بعدها يواف ساجى رئيس جمعية حماية الطبيعة فى إسرائيل فى الحديث ثائراً، وقال: «لا بد لنا هنا من تغيير مفاهيمنا، من إخضاع الأرض إلى حماية الأرض. ذلك أنه إذا حدث فى يوم من الأيام أن أصبحت إسرائيل دولة عادية، بدون مواجهة حروب أخرى، فإن ما ساعدنا على استمرار الحياة هنا هو نوعية الحياة وارتباطنا بالأرض. ولكننا إذا واصلنا الاتجاه الحالى فلن تكون هناك نوعية للحياة ولا أرض نرتبط بها».

إنك عندما تنزع عن بيوت الناس تميزها ـ إما بتجانسها وإما بتدميرها بيئياً ـ فإنك لا تعرض للخطر التراث الثقافى وحده وإنما تماسك النسيج الاجتماعى أيضاً. فقد يكون التراث الثقافى فى أفضل الظروف واحداً من أقوى أشكال التقييد الاختيارى

للاندفاع فى سلوك البشر. فهو يمنح الحياة الشكل والمعنى. إنه يقر مجموعة كاملة من العادات والضوابط السلوكية، والآمال والتقاليد التى تعطى للحياة شكلاً معيناً وتشد المجتمع بعضه إلى بعضه الآخر. وعندما تقتلع العولمة الجامحة الثقافات والبيئات من جذورها تدمر فى الوقت ذاته النسيج الضرورى اللازم للحياة الاجتماعية.

يعود بنا ذلك إلى الحديث عن العولمة المستديمة أو المتواصلة . إنك لا تستطيع بناء مجتمع ناهض ـ وهو شيء جوهرى فى التعامل مع نظام العولمة ـ إذا كنت تدمر فى آن واحد الأساسيات الثقافية التى تدعم مجتمعك وتعطيه الثقة بالنفس والتماسك لكى يتفاعل بصورة سليمة مع العالم. وهذا هو السبب فى أن ما أشعر به من قلق تجاه الدول النامية التى تطغى العولمة على ما يميزها عن غيرها يتجاوز مجرد الاهتمام الضيق برغبتى فى أن تظل أماكن مبهرة نسعد بها جميعاً كسائحين. ويرجع ما أشعر به من قلق إلى أنه بدون بيئة لن يكون هناك التراث الثقافى المتواصل، وبدون التراث الثقافى المتواصل لن يكون هناك المجتمع المتواصل، وبدون المجتمع المتواصل لن تكون هناك عولمة متواصلة.

إننى أشهد هذه العملية بوضوح فى الحى الذى أعيش فيه. المقهى المفضل لدىّ هذه الأيام، ويقع على بُعد بضعة أميال من منزلى فى مدينة بيثيسدا بولاية ميريلاند، واسمه كورنر بيكرى (مخبز الناصية) . بداية، يعجبنى اسم كورنر بيكرى. إنه يعطى شعوراً بالدفء والجوار، وهم يبيعون فى الداخل ثلاثين نوعاً مختلفاً من الخبز. كما أن له نكهة المخابز القديمة وشكلها أيضاً. وبه ديكورات من الخشب والنحاس اللامع ويتميز العاملون به بالود. نعم، هذا هو مقهى كورنر بيكرى الخاص بى. ولكن ثمة مشكلة وحيدة تتعلق بمقهى كورنر بيكرى الخاص بى. وهو أنه ليس على كورنر (ناصية) . بل إنه يوجد فى داخل مونتجومرى مول، وهو مركز للتسوق. فعلى الرغم من أن الاسم والأجواء التى تحيط بالمكان تذكرك بشارع مين ستريت Main Street

القديم، فلا توجد به تلك الروح التى كانت سائدة قديماً. فإذا ذهبت إلى كورنر بيكرى لا تجد تلك العبارات الحميمة «مرحباً يا جار ـ مرحبا پوپ ـ مرحباً دكتور». إنهم مجرد مجموعة من الغرباء تقابلوا صدفة على الطريق. وبعبارة أخرى، إننا قد وصلنا بالفعل إلى حقبة ما بعد ماكدونالدز. وإننا عدنا من الظاهر فقط إلى شىء فى جذورنا ـ ولكن المجتمع والبيئة المحيطة التى أعطت الحياة لمخبز الناصية القديم ليست قائمة هناك فى خلفية سلسلة مقاهى كورنر بيكرى الجديدة. وهكذا فإنها مجرد واجهة بوتمكين ، لا يثبتها المجتمع فى مكانها وإنما تثبتها الخرسانة المسلحة.

إن أكثر ما أخشاه أن تصل ماليزيا وتايلاند، والهند وإسرائيل، وقطر وإندونيسيا فى نهاية الأمر إلى مرحلة من تطورها تجعلها أيضاً تريد استعادة مخابز الناصية الخاصة بها ـ المشاهد والروائح والألوان وأكشاك الشوارع والعمارة والمناظر الطبيعية للأيام الخوالى. تلك هى الأعشاش التى غرست وترعرعت فيها ثقافاتها المتميزة، أشجار زيتونها. ولكنهم قد يكتشفون أنها محيت من الوجود إلى الأبد، ليس بفعل نوع جديد ومتطور من ثقافتهم القديمة التى حدثت على مر التاريخ، وإنما بالأحرى بفعل ثقافة عالمية عقيمة أخذت طريقها بعنف إلى مجتمعاتهم محطمة حدودها الثقافية.

ليس بوسعنا أن نأمل فى أن نحافظ على كل تراث ثقافى فى العالم كما هو عليه تماماً. كما أننا لا نود الاحتفاظ بتراث ثقافى يفتقر إلى الإرادة الذاتية والتماسك اللازمين للقيام بذلك بنفسه. فكما هو الحال بالنسبة لأنواع الكائنات الحية يعتبر انبثاق الثقافات وازدهارها ثم موتها جزءاً من التطور. ولكن ما يحدث اليوم، بفضل العولمة، هو تطور توربينى. شىء أقرب إلى الظلم. ففى عالم بلا أسوار، لا تستطيع حتى بعض الثقافات القوية مجاراة قُوى القطيع الإلكترونى. وتحتاج إلى ما يساعدها على البقاء، وإلا فإنه سيقضى عليها بمعدل يفوق قدرتها على التجدد بفعل التطور، وسوف ينتهى بنا الحال بوجود حيوان واحد فى حديقة الحيوان.

ولا يوجد من يفهم ذلك أفضل من جيمس وولفينسون رئيس البنك الدولى. حكى لى وولفينسون ذات مرة عن رحلة قام بها فى جواتيمالا، بعد وقت ليس بطويل من توليه رئاسة البنك الدولى: «كنت فى ذلك البلد ذى الأراضى المرتفعة، حيث قابلت زعماء قبائل المايا المسنين. كان اللقاء فى قرية شديدة الفقر، ومحرومة من كل شىء. كان هؤلاء الناس لا يملكون شيئاً. وكان علينا أن نذهب إلى هناك لنعرف كيف السبيل إلى مساعدتهم على النهوض بشئون الرعاية الصحية والتعليم. وعندما أثرنا موضوع التعليم وجدنا أن ذلك هو الشىء الذى يفضلون الحديث عنه أكثر من أى شىء آخر. بل أكثر من الحديث عن المياه. كانوا يريدون منا مساعدتهم فى حماية التعليم المايى، وهو عبارة عن تراث شفهى تتناقله الأجيال عبر ثلاثة آلاف عام. هنا كان الناس فى شدة الفقر، ولكنهم كانوا أثرياء إلى حد مذهل فى تاريخهم وثقافتهم ـ لقد درسوا الرياضيات والفلك قبل الغرب بزمن طويل ـ وكانوا يريدون منا مساعدتهم على الاستمرار فى نقل هذا التراث إلى أطفالهم. إن العالم ليصبح مكاناً أكثر فقراً إذا لم نساعدهم على ذلك».

وهكذا بدأ وولفينسون برنامجاً للإقراض الثقافى فى البنك الدولى ـ إلى جانب الإقراض الإنمائى العادى ـ على اعتبار أن فقدان معرفة وثقافة زعماء قبائل المايا هؤلاء سيكون بمثابة فقدان الحمض النووى (الدنا DNA) لنوع نادر من النباتات أو الحيوانات. ومن بين مشروعات الإقراض الثقافى التى يدعمها البنك الدولى الآن ترميم المتحف الوطنى فى البرازيل، وترميم مساجد فى سمرقند، والحفاظ على المواقع الأثرية فى بيت لحم، وإصدار قاموس لغوى فى أوغندا، وتطوير مشروعات الثقافات الحية للشعوب الأصلية فى بيرو وبوليفيا، ودعم الحرفيين المهرة وأصحاب المهن اليدوية فى المغرب. والأمر المحزن الوحيد هو أن وولفينسون عليه أن يصارع كل عام مجلس إدارة البنك الدولى المؤلف من وزراء للمالية، لاستمرار تمويل هذا البرنامج. يقول

وولفينسون: «أقول لهم، 'هل يمكن أن تتخيلوا إنجلترا بدون تاريخها؟ هل يمكن أن تتخيلوا كيف يكون الحال إذا ذهبنا إلى فرنسا ولم نعثر على ثقافتها؟ حسناً، إذا كنتم لا تستطيعون تخيل ذلك، فلم إذن تنكرونها على الدول النامية التى تحتاج إليها حتى أكثر منكم؟ فليس فى استطاعتكم مساعدة الناس على التقدم إلى الأمام ما لم تكن لديهم معرفة بالقاعدة أو الماضى اللذين انحدروا منهما'». إن أفضل جزء فى برنامج وولفينسون هو أنه يتعين على الدول التى تحصل على مساعدات ثقافية، أن تستخدم15 فى المائة منها لتمويل الفنانين والمصورين وأصحاب الحرف والشعراء المعاصرين حتى لا تصبح مساعدات البنك الدولى مجرد وضع التراث الثقافى فى المتاحف بل رعايته باعتباره حقيقة تعيش فى الوقت الراهن.

لن يكتب الاستمرار للعولمة إلى حد ما إلا بمدى نجاح كل منا فى وضع المرشحات اللازمة لحماية تراثنا الثقافى وبيئتنا، فى حين يحصل على أفضل ما لدى الآخرين من هذا التراث الثقافى. لو كانت العولمة أكثر من مجرد طريقة لتبادل الثقافات ـ بما يتيح لى أن أتذوق السوتشى والكابوكى اليابانى اللذين يخصان تلك الفتاة اليابانية فى حين تستمتع هى بمذاق ماكدونالدز وديزنى اللذين ينتميان لى ـ بحيث تسمح أكثر للناس بأن ينتقوا ويختاروا بالفعل. وإذا تحولت إلى نوع من الاتحاد الكونفيدرالى بين ثقافات مميزة وليست متجانسة، وإذا ساندت عالماً أكثر تنوعاً ثقافياً بدلاً من ذلك العالم النمطى الذى يفتقر إلى الروح، فسوف يكتب لها الاستمرار. يقول يارون إيزراحى فى ذلك: «إما أن تعمل العولمة على تجانسنا من السطح فقط وتظل جذورنا الثقافية المحلية باقية، وإما أن تعمل على تجانسنا حتى الجذور، وتصبح حينئذ أداة للدمار البيئى والثقافى والسياسى».

لا بأس فى أن يوجد فى عالم ديزنى الجناح الصينى والجناح الفرنسى والجناح المكسيكى. ولكن فليلطف بنا الله من عالم يكون فيه الجناح الصينى فى عالم ديزنى

هو كل ما يذكرنا بما كانت عليه الصين، وحيث تكون مملكة الحيوان فى عالم ديزنى هى المكان الوحيد الذى يذكرنا بما كانت عليه الغابة فى يوم من الأيام، وحيث يكون مقهى الغابة المطيرة هو الغابة المطيرة الوحيدة التى ستقع عليها عينك وعيون أولادك.